

## آثار الاستمتاع بين الزوجين في الأحوال الشخصية

محمود مجيد سعود الكبيسي

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وعلى صحبه وآل بيته الطيبين

الطاهرين، وبعد:

فقد جاء هذا الدين مستوعباً جميع حركات الإنسان في هذه الحياة، ومنظماً لها تنظيمًا دقيقاً. فهو لم يترك حركة في حياته إلا وبيّن حكمها، من ولادته حتى إدخاله في قبره: مانعاً للإنسان عما يضره، وطالباً منه ما ينفعه، وتاركاً له الاختيار في بعض الأمور. ومما تناوله الشرع ونظّمه، الغريزة الجنسية التي وضعها الله في هذا الإنسان. والله عز وجل حين وضع هذه الغريزة عالم بأنها غريزة ذات حدين، تؤتي أكلها وثارها إذا استعملت استعمالاً صحيحاً حكيمًا. وهي مدمرة إذا خرج بها الإنسان عن طريق الصواب وتابعتها ولم يلجمها بلجام الحكمة.

والله عز وجل حين خلق هذه الغريزة لم يكتبها، بل نظّم استعمالها تنظيمًا دقيقًا تلائم الحكمة التي من أجلها وجدت. فشرع ديننا الحنيف الزواج، استدامةً للجنس البشري واستجابةً لتلك الغريزة، وليكون بين هذين الجنسين سكناً ومودة ورحمة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(1)</sup>. وقد وضع هذا الدين قوانين مفصلة لهذا الزواج لم تفصلها أي قوانين أخرى من القوانين المدنية والجنائية التي جاء بها هذا

الدين. فكان العقد والمهر وإباحة الاستمتاع بين الزوجين والعدة والرجعة... وحرّم من النساء ما اقتضت الحكمة تحريمه. ورتب على الاستمتاع أحكاماً في كثير من أبواب الفقه: الطهارة والصلاة والصيام والحج وفي كثير من أبواب النكاح.

أهمية البحث:

إنّ هذا الموضوع من الموضوعات المهمة التي لا يستغني عنها مسلم، وله علاقة بعبادات المسلم وبأحواله الشخصية (الزواج والطلاق)، فالاستمتاع بين الزوجين له أثر في تحريم بعض النساء على الزوج، كما له أثر في الزوجة والعدة والمهر والرجعة. وهذه الأمور - أو أكثرها - يتصل بالأعراض والنسب. والشرع احتاط للأعراض احتياطاً كبيراً، كما جعل للنسب أصولاً وشروطاً، تجعل منها سياجاً منيعاً لعدم اختلاط الأنساب. كما أن له آثاراً على العبادات بإفسادها ووجوب الكفارات فيها، وله آثار أخرى هي: الإثم في وطء الحائض، على خلاف بين العلماء في وجوب الكفارة وعدمها<sup>(2)</sup>.

ومع هذا لم أجد من بحثه بحثاً مستقلاً جمع فيه أهم مسائله، لذا اخترته ليكون موضوع بحثي، لأقدم للمسلم فيه ما يحتاج إليه من أحكام في هذا المجال.

موضوع البحث:

موضوع البحث الآثار التي تترتب على استمتاع الزوج بزوجه، فيما يخص الأحوال الشخصية. ذلك أنّ الآثار التي تترتب على الاستمتاع متنوعة وطويلة لا يستوعبها بحث، بل تحتاج إلى كتاب<sup>(3)</sup>.

وقد اقتضى البحث تقسيمه إلى خمسة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: استقرار الصداق.

المبحث الثاني: تحريم أم الزوجة وبنت الزوجة.

المبحث الثالث: حل المطلقة ثلاثاً.

المبحث الرابع: حصول الرجعة.

المبحث الخامس: وجوب العدة.

الخاتمة: في أهم ما ورد في هذا البحث.

2- وقد بحثت هذه الآثار تحت عنوان "موانع الاستمتاع بين الزوجين والآثار المترتبة عليه" وكان بحثاً طويلاً.

3- المصدر السابق.

## المبحث الأول: استقرار الصداق:

### تعريف الصداق:

الصداق: هو المال الذي يجب على الزوج لزوجته بعقد النكاح نفسه، أو بالوطء بشبهة<sup>(4)</sup>. فإذا تم عقد النكاح وجب الصداق على الزوج، ويجب الصداق - أيضاً - إذا وطئ امرأة بشبهة، كما إذا عقد رجل على امرأة عقداً فاسداً، فوطئها بذلك العقد<sup>(5)</sup>. والصداق يجب بالعقد وجوباً غير مستقر، أي إن الصداق يجب جميعه بمجرد عقد النكاح، لكنه قابل للتصرف والسقوط، لأنه يمكن أن يطلقها قبل الدخول فيتصرف، أو ترد فيسقط<sup>(6)</sup>.

### استقرار الصداق بالوطء:

وأجمع العلماء على أن الصداق يستقر جميعه بالوطء في القبل ولا يسقط بعده أبداً، سواء أفارقها أم لم يفارقها، وسواء أكان فراقه بموت أو غيره، إذا كانت الفرقة من جانبه<sup>(7)</sup>. وهذا الاستمتاع يستقر به

4- ابن عابدين، ردّ المحتار، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط 2، 1386هـ/1966م، 3/100-101، الشريبي، مغني المحتاج، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، 1377هـ/1958م، 3/220، البهوتي، كشاف القناع، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، 1394هـ، 5/142.

5- ومن صور الوطء بشبهة أيضاً: أن يعقد رجل على امرأة، دون أن يراها، ثم يُزَفَّ إليه غيرها، فيطأها، فإنه يجب عليه الصداق، ويرجع بالصداق على من غره.

6- قال ابن قدامة في المغني، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، 7/698-699: "إن المرأة تملك الصداق بالعقد، وهذا قول عامة أهل العلم، إلا أنه حكِي عن مالك: أنها لا تملك إلا نصفه، ورُوِيَ عن أحمد ما يدل على ذلك، وقال ابن عبد البر: هذا موضع اختلف فيه السلف والآثار، وأما الفقهاء اليوم فعلى أنها تملكه". وانظر: الماوردي، الحاوي، تحقيق علي محمد معوض و عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1414هـ/1994م، 9/419. ولللكية ثلاثة أقوال في هذا: أحدها كالجمهور، والثاني أنها تملك النصف فقط - وهو المذهب - والثالث: الصداق يجب بالعقد وجوباً غير مستقر، ويستقر نصفه بالطلاق قبل الدخول، ويستقر جميعه بالدخول، معللين لذلك بأن الحقوق إذا تقررت لأربابها لا تسقط، إلا بما يصح إسقاطها به - من بيع، أو هبة، أو ما أشبه ذلك - فلو وجب للمرأة الصداق بعقد النكاح لما سقط جميعه بالفسخ أو الارتداد، ولا نصفه بالطلاق. انظر: ابن رشد الجدل، المقدمات، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1408هـ/1988م، 1/537-538، الدسوقي، حاشيته على الشرح الكبير، دار الفكر للطباعة والنشر، 2/300.

7- الحصكفي، الدر المختار مع رد المحتار، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط 2، 1386هـ/1966م، 3/102، القاضي عبد الوهاب البغدادي، المعونة، تحقيق حميش عبد الحق، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، 2/754، ابن رشد

الصداق، وإن كان حراماً، سواء أكان التحريم بسبب منها أو منه أو منهما، كما لو استمتع بها في نهار رمضان أو أثناء الحيض أو كانا محرّمين بحج أو عمرة أو أحدهما.

#### الوطء في الدبر:

كما يتقرر المهر بالوطء في الدبر عند الحنفية والشافعية والحنابلة - وهو المذهب عند المالكية - لأنه نوع من الاستمتاع وقد استوفاه الزوج، فوجب الصداق<sup>(8)</sup>. وفي المذهب المالكي قول بأن المهر لا يستقر بالوطء في الدبر، ولم أجد تعليلاً لهذا القول، ولعلهم يرون أنّ الشرع أوجب المهر في الاستمتاع في القبل، كما أنّ الوطء في الدبر لا يترتب عليه إتلاف، فأشبهه القبلة والوطء دون الفرج<sup>(9)</sup>.

أشياء أخرى لها حكم الدخول:

#### أولاً: الخلوّة:

اختلف العلماء في اعتبار الخلوّة كالدخول في استقرار الصداق وكما له، ووجوب العدة، على ثلاثة أقوال:

**القول الأول:** إنّ الخلوّة الصحيحة - وهي انفراد رجل بامرأة، دون مانع حسيّ، أو شرعيّ بعد نكاح صحيح - تقوم مقام الدخول في النكاح الصحيح في استقرار الصداق وكما له، ووجوب العدة. وبهذا قال الحنفية<sup>(10)</sup> والشافعية في قول<sup>(11)</sup> والحنابلة، وهو مروى عن الخلفاء الراشدين وزيد بن ثابت وابن

الحفيد، بداية المجتهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 10، 1408هـ / 1988م، 17/2، ابن جزى، القوانين الفقهية، دار الفكر، بيروت، ص 175، الخطاب، مواهب الجليل، دار الفكر، ط 2، 1398هـ / 1978م، 3/506، النووي، روضة الطالبين، المكتب الإسلامي، بيروت، 1395هـ / 1975م، 7/263، الشربيني، مغني المحتاج، 3/224، 234، ابن قدامة، المغني، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، 6/699، البهوتي، كشاف القناع، 5/168.

8- الدردير، الشرح الكبير، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2/300، الخطاب، مواهب الجليل، 3/506، ابن قدامة، الشرح الكبير، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، 21/286-287، البهوتي، كشاف القناع، 5/168، 170، البهوتي، شرح منتهى الإرادات، دار الفكر، بيروت، 3/76، النووي، روضة الطالبين، 7/204، 263، الرملي، نهاية المحتاج، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1404هـ / 1984م، 6/341، الشربيني، مغني المحتاج، 3/224.

9- هذا التعليق يورده الحنابلة لعدم وجوب المهر بالزنى في الدبر، ولعله يرد هنا. انظر: ابن قدامة، الشرح الكبير، 21/295. ويريدون بالإتلاف إتلاف غشاء البكارة.

10- المرغيناني، الهداية مع فتح القدير، لابن الهمام، دار إحياء التراث، بيروت، 3/218، ابن عابدين، رد المحتار، 3/114.

11- النووي، الروضة، 7/263، الشربيني، مغني المحتاج، 3/225.

عمر، وبه قال علي بن الحسين وسعيد بن المسيب وعروة وعطاء والزهري والأوزاعي وإسحاق<sup>(12)</sup>.  
 ودليل هذا القول: إجماع الخلفاء الراشدين، فقد قال زرارة بن أوفى: "قضى الخلفاء الراشدون المهديون: أنّ  
 من أغلق باباً، أو أرخى ستراً، فقد وجب الصداق ووجبت العدة"<sup>(13)</sup>. وهذه قضايا تشتهر، ولم يخالفهم  
 أحد في عصرهم، فكان إجماعاً<sup>(14)</sup>.

**القول الثاني:** لا تقوم الخلوة مقام الدخول، فلا يستقر بها الصداق ولا يكمل، ولا توجب  
 العدة، وإنما يكون ذلك بالدخول فقط. وبهذا قال الشافعي في قوله الجديد، وهو الأظهر في المذهب<sup>(15)</sup>،  
 وحكي عن ابن مسعود<sup>(16)</sup> وابن عباس<sup>(17)</sup> رضي الله عنهما، وبه قال شريح والشعبي وطاوس

- 
- 12- ابن أبي شيبة، المصنف، تحقيق وتصحيح: عامر العمري الأعظمي، الدار السلفية، بمبي، الهند، 234/4 - 236،  
 عبد الرزاق، المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1403هـ/ 1983م،  
 285/6 - 290، الماوردي، الحاوي، 9/540، ابن حزم، المحلّي، تصحيح: عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب  
 العلمية، لبنان، 9/74-77، مسألة: 1846، ابن قدامة، المغني، 6/724، ابن حجر، فتح الباري، تحقيق وتصحيح:  
 الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت، 9/495.
- 13- أخرجه ابن أبي شيبة، المصنف، 4/235، والبيهقي، السنن الكبرى، دائرة المعارف العثمانية، الهند، 7/255-256. وهو  
 مرسل، لأنّ زرارة لم يدرك أحداً من الخلفاء الراشدين الأربعة. قال البيهقي: "وقد روينا عن عمر وعلي رضي الله عنهما  
 موصولاً". وأخرجه - قولاً، وليس قضاء - عن عمر وعلي: ابن أبي شيبة، المصنف، 4/234-235، وعبد الرزاق،  
 المصنف، 6/285-287، والدارقطني، السنن، نكاح، الصداق، تخريج وتعليق: مجدي بن منصور الشوري، دار الكتب  
 العلمية، بيروت، ط 1، 1417هـ/ 1996م، 3/ح: 3776-3779. وقد صححه الألباني في إرواء الغليل، المكتب  
 الإسلامي، بيروت، ط 1، 1399هـ/ 1979م، 6/256-257 عن علي وعمر وابنه عبدالله، رضي الله عنهم.
- 14- ابن قدامة، المغني، 6/724.
- 15- النووي، الروضة، 7/263، الشريبي، مغني المحتاج، 3/225.
- 16- أخرجه ابن أبي شيبة، المصنف، 4/236. قال ابن المنذر: "منقطع". ابن قدامة، المغني، 6/724.
- 17- أخرجه ابن أبي شيبة، المصنف، 4/236. قال أحمد: "يرويه ليث، وليس بالقوي، وقد رواه حنظلة خلاف ما رواه  
 ليث". ابن هانئ، مسائل الإمام أحمد، تحقيق فضل الرحمن محمد، الدار العلمية، دفي، الهند، ط 2، 1419هـ/  
 1998م، 1/215، ابن قدامة، المغني، 6/724. لكن الألباني صححه في السلسلة الضعيفة، مكتبة المعارف،  
 الرياض، ط 5، 1412هـ/ 1992م، 3/ح: 1019. وانظر: ابن حجر، التلخيص الحبير، تصحيح وتعليق:  
 عبد الله هاشم المدني، 1384هـ/ 1964م، 3/193.

وابن سيرين، وهو قول ابن حزم<sup>(18)</sup>. وحجتهم قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾<sup>(19)</sup>. فقد ذكرت الآية أنّ من طُلِّقت قبل المسيس، فلها نصف الصداق. والمراد بالمسيس: الجماع. ودليلهم من جهة القياس: أنّ استقرار الصداق حكم من أحكام الدخول، فلم يجب بالخلوة وحدها، كالغسل والحُدّ، فإنهما لا يجبان بالخلوة<sup>(20)</sup>. كما أنّ هذه خلوة لم يصاحبها مسيس، فلم يكمل بها الصداق، كما لو اختلى بها الزوج وكان مُحْرماً أو صائماً<sup>(21)</sup>. وقد أعلّ أصحاب القول الأول ما رواه أصحاب القول الثاني عن ابن مسعود وابن عباس<sup>(22)</sup>. فقد نقل ابن قدامة أن ابن المنذر أعلّ أثر ابن مسعود بالانقطاع. ونقل - أيضاً - أن أحمد قال عن أثر ابن عباس: يرويه ليث. وليث ليس بالقوي<sup>(23)</sup>.

**القول الثالث: إنّ الخلوة في استقرار الصداق لمدعي الإصابة بمثابة اليد لمدعي الملكية، فلو اختلبا، وادعت الزوجة الإصابة صدقت بيمينها.** وهذا قال الإمام مالك والشافعية في قول<sup>(24)</sup>. وفي رواية عن الإمام مالك: التفريق بين أن تكون الخلوة في بيتها وتدعي أنه مسّها وهو ينكر، فإنه يصدق عليها، وإن كان في بيته صدّقت هي عليه<sup>(25)</sup>. ووجه التفريق بين أن تكون الخلوة في منزلها فيصدق، أو في منزله فتصدق: أنّ الزوج ينسبط في بيته وتقل هيئته لها في منزله، فلا يستبعد أن يكون قد مسّها، وهذا يشهد لدعواها المسيس ويضعف دعواه. وعلى خلاف هذا المنزل الذي يزوره الزوج، فإنّ الإنسان مجبول على الاستحياء والانقباض في المنزل الذي يزوره، وهذا يشهد لدعواه عدم المسيس ويضعف دعواها<sup>(26)</sup>.

- 
- 18 - ابن أبي شيبة، المصنف، 4/ 236، عبد الرزاق، المصنف، 6/ 290-291، الماوردي، الحاوي، 9/ 540، ابن حزم، المحلّ، 9/ 73، مسألة: 1846، ابن قدامة، المغني، 6/ 724، ابن حجر، فتح الباري، 9/ 495.
- 19 - سورة البقرة، الآية: 237.
- 20 - الشريبي، مغني المحتاج، 3/ 225.
- 21 - الباجي، المنتقى، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1331 هـ، 3/ 292.
- 22 - ابن قدامة، المغني، 6/ 724.
- 23 - المصدر السابق، 6/ 724.
- 24 - هو قول الشافعي في القديم، لكن الشافعية اختلفوا في تفسير هذا القول، فمنهم من فسّره بهذا المعنى، ومنهم من فسّره بمعنى القول الأول. انظر: الماوردي، الحاوي، 9/ 540، النووي، الروضة، 7/ 263.
- 25 - الإمام مالك، الموطأ، 2/ 528-529، الباجي، المنتقى، 3/ 292-293.
- 26 - الباجي، المنتقى، 3/ 293. وفي المذهب أقوال أخرى. انظر: ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد، 2/ 17. هذا، ويجعل الملكية الخلوة حكمها حكم الدخول في إيجاب العدة، كما سيأتي في العدة.

## الترجيح:

وسبب الخلاف تعارض ما ورد عن بعض الصحابة - دليلاً للقول الأول - مع ظاهر القرآن الكريم<sup>(27)</sup>، قال ابن رشد: "والمسيب - هاهنا - الظاهر من أمره أنه الجماع، وقد يحتمل أن يحمل على أصله في اللغة، وهو المس، ولعل هذا هو الذي تأولت الصحابة". لكن هذا التأويل الذي طرحه ابن رشد بعيد، لأنه لو كان كذلك لما علق الصحابة كمال الصداق بالخلوة، ولعلقوه بالمس دون خلوة.

وإذا ثبت ما ورد عن الصحابة، مخالفاً لظاهر القرآن الكريم، فالأولى تأويل ما ورد عن الصحابة، لا تأويل القرآن. وقد تأول الإمام مالك الأقوال التي وردت عن علي وعمر رضي الله عنهما على معنى المسيب، أي: إنه إذا كانت الخلوة وادّعت المسيب، فقد وجب الصداق، لأن الخلوة شاهدة للمرأة على دعواها، لأن الرجل متى خلا بامرأته أول خلوة مع الحرص عليها والتشوف إليها، فإنه قلما يفارقها دون مسيب<sup>(28)</sup>. وقريب من هذا أن يقال: إن قولها: "فقد وجب الصداق" كناية عن تحقق المسيب عند الخلوة، أي إذا وجدت الخلوة فقد تحقق المسيب.

## الخلوة الصحيحة:

الخلوة الصحيحة: هي انفراد زوج بزوجه دون مانع حسي أو شرعي بعد نكاح صحيح. فلا تتحقق الخلوة الصحيحة إلا بشروط أربعة:

الشرط الأول: وجود خلوة حقيقية: أي وجودهما في مكان يصلح للخلوة، دون ثالث عاقلٍ لمعنى لقاء الرجل بالمرأة. فلا تعتبر خلوة انفراده بها في شارع أو مسجد، لأنها لا تصلح للخلوة. كما لا تعتبر خلوة حقيقية مع وجود ثالث عاقل يعي معنى لقاء الرجل بامرأته. أما وجود ثالث مجنون، أو مغمى عليه، أو صغير لا يعقل، فإنه لا يمنع الخلوة الحقيقية. وخالف الحنابلة في المجنون، فقالوا: إن وجوده يمنع وجود الخلوة.

الشرط الثاني: عدم المانع الحسي: بأن لا يكون بأحدهما مرض يمنع الوطء، فإن وجدت الخلوة الحقيقية، وكان بأحدهما مرض يمنع الوطء، لم توجد الخلوة الصحيحة. وفي رواية عن الإمام أحمد - وهي المذهب - عدم اعتبار المانع الحسي، لأن الأمر معلق بالخلوة، وقد وجدت.

27- ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد، 2/ 17.

28- الباجي، المنتقى، 3/ 292.

الشرط الثالث: عدم المانع الشرعي: بأن لا يكون بأحدهما مانع شرعي من الوطاء، فلو كان أحدهما محرماً، أو صائماً صيام رمضان أداءً، فإن هذا يمنع الخلوة الصحيحة، وإن كانت الخلوة حقيقية، ولم يكن هناك مانع حسيّ. وفي رواية عن الإمام أحمد - وهي المذهب - عدم اعتبار المانع الشرعي، لأنّ الأمر معلق بالخلوة، وقد وجدت.

الشرط الرابع: أن تكون بعد نكاح صحيح: فإن كانت بعد نكاح فاسد، فلا أثر للخلوة، في قول أكثر أهل العلم. وعن الإمام أحمد أنّ الخلوة بعد نكاح فاسد تقرّر الصداق، قياساً على العقد الصحيح، وهو من مفردات الحنابلة<sup>(29)</sup>.

#### أثر الخلوة الصحيحة:

أثر الخلوة - عند من اعتبرها كالدخول - لم يقتصر على كمال الصداق واستقراره، بل هي كالدخول - أيضاً - في: ثبوت النسب، ووجوب العدة، وحرمة زواجه بأخواتها أو بخامسة في عدتها، ووجوب النفقة في مدة العدة، ومراعاة وقت طلاقها، حيث يوصف طلاقها بالبدعيّ والسنيّ. لكنها ليست كالدخول في وجوب الحد، والإحصان، وحلّ المطلقة ثلاثاً لزوجها الأول، والرجعة (فإذا اختلى بها لا تعتبر رجعة) والميراث (فإذا اختلى بها، ثم طلقها، وماتت في عدتها فإنه لا يرثها) وحرمة البنات (فإذا عقد على امرأة وخلاها، ثم طلقها فإن بناتها لا يحرم من عليه)<sup>(30)</sup>.

#### ثانياً: طول الإقامة:

قال المالكية: إنّ طول الإقامة عند الزوج يقوم مقام الدخول، في النكاح الصحيح في استقرار الصداق، إذا كان الزوج بالغاً وهي مطيقة للوطء، واتفقا على عدم الوطاء. فإذا تم عقد النكاح بينهما ورُفَّت إليه وطالت إقامتها عنده، فإن المهر يستقر ويثبت جميعه بطول الإقامة هذه، إن كان قد سُمِّي لها مهر، وإن طلقها قبل أن يدخل بها. فإن طالت إقامتها معه، ولم يسم لها مهر، ثم طلقها قبل أن يدخل بها، لم يجب لها شيء، فمجرد طول الإقامة لا يقرر المهر إلا إذا كان مسميًّا.

29- المرغيناني، الهداية مع فتح القدير، 3/ 215 - 218، الحصكفي، الدر المختار مع ردّ المحتار، 3/ 114 - 118، ابن قدامة، المغني، 6/ 726، البهوتي، كشاف القناع، 5/ 169.

30- المرغيناني، الهداية مع فتح القدير، 3/ 218، الحصكفي، الدر المختار مع ردّ المحتار، 3/ 118-120، ابن قدامة، المغني، 6/ 727، ابن قدامة، الشرح الكبير، المرداوي، الإنصاف، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، 21/ 289-290، البهوتي، كشاف القناع، 5/ 169-170.



## المراد بطول الإقامة:

والمراد بطول الإقامة: طول إقامة الزوجة عند زوجها بعد أن زُفَّت إليه، دون دخولٍ. وطول الإقامة قُدِّرَ بسنةٍ، وقيل: ما يعدُّ طولاً عرفاً، وحكمه عند المالكية في تقرير المهر حكمُ الدخول<sup>(31)</sup>. ولم أرَ توجيهاً لهذا القول، لعل توجيهاً: إنه طول الإقامة مظنة للمسيس، فأعطي حكم المسيس.

ثالثاً: أشياء أخرى لها حكم الدخول:

جعل الحنابلة - في وجهه، وهو المذهب - اللمس بشهوة، والنظر إلى فرجها بشهوة، وتقبيلها كالخولة في تمام الصداق. ودليلهم قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرِيضَةٌ مَأْفُوظَةٌ﴾<sup>(32)</sup>. حيث حملوا المس على حقيقته، وهو التقاء البشريتين. كما استدلوا بها رُوي عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كشف خمار امرأة ونظر إليها، فقد وجب الصداق، دخل بها أو لم يدخل"<sup>(33)</sup>. وهو حديث ضعيف لا يصلح للاحتجاج، وهم لا يأخذون به، لأنه يجعل مجرد النظر مكماً للصداق. وذهب أكثر أهل العلم إلى أن ما تقدم لا يكمل به الصداق - وهو وجه عند الحنابلة - استدلالاً بالآية، بحمل المس على الجماع<sup>(34)</sup>، والله أعلم.

المبحث الثاني: تحريم أم الزوجة و بنت الزوجة:

للاستمتاع أثر في تحريم أم الزوجة على زوج بنتها، و بنت الزوجة على زوج أمها، فقد قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِمَّنْ نَسَأَ كُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾<sup>(35)</sup>.

31- ابن شاس، عقد الجواهر، تحقيق محمد أبو الأجنان وعبد الحفيظ منصور، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1415هـ/ 1995م، 2/ 97 - 98، الدردير، الشرح الكبير، 2/ 301، 314، 468.

32- سورة البقرة، الآية: 237.

33- أخرجه الدارقطني، نكاح، الصداق، 3، ح: 3780. وهو ضعيف لإرساله. انظر: ابن حجر، التلخيص الحبير، 3/ 193، الألباني، السلسلة الضعيفة، 3، ح: 1019.

34- ابن قدامة، المعني، 6/ 727، ابن قدامة، الشرح الكبير، 21/ 255-256، البهوتي، كشاف القناع، 5/ 170. وانظر المصادر السابقة.

35- سورة النساء، الآية: 23.

فهذه الآية تتحدث عن أم الزوجة وابنتها، وتُحرّم على زوج الأم ابنة زوجته، وعلى زوج البنت أمّها. والمراد بأم الزوجة في الآية: أصول الزوجة من الإناث، وهي أمّها وأمّ أمّها، وأمّ أبيها، أي جدّاتها من جهة الأمّ أو الأب، وإن علوّن، وسواء كنّ من نسبٍ أو رضاع<sup>(36)</sup>. والمراد ببنت الزوجة - وهي التي تُسمّى ربيبة<sup>(37)</sup> -: بنتُ زوجة الرجل من غيره، سواءً أكانت ابنتها من نسبٍ أو رضاعٍ، وسواءً ابنتها مباشرةً أو ابنةً بنتها أو ابنها. وكما تحرم الربيبة تحرم بنتها، وبنت الربيب<sup>(38)</sup>. وقد أجمع العلماء على أن من عقد على امرأة ودخل بها دخولاً حقيقياً حرمت عليه أمّها. كما أجمعوا على أن من عقد على امرأة ودخل بها دخولاً حقيقياً حرمت عليه ابنتها إذا كانت في حجره. واختلفوا في حالتين: الأولى: أن يعقد على امرأة، ثم يفارقها قبل الدخول بها، هل تحرم عليه أمّها؟ والثانية: أن يعقد على امرأة، ثم يفارقها قبل الدخول بها، هل تحرم عليه ابنتها التي ليس في حجره؟

الحالة الأولى: أن يعقد على امرأة، ثم يفارقها قبل الدخول بها، هل تحرم عليه أمّها؟

اختلف العلماء في هذا على قولين:

القول الأول: إن مجرد العقد الصحيح على البنت يُحرّم الأم، ولا يشترط الدخول بالبنت لتحريم الأم، لأن قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ... وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ يُحرّم أم الزوجة دون قيد، والمرأة تصبح زوجة للرجل بمجرد العقد، وإلى هذا ذهب جمهور فقهاء المسلمين، ومنهم الأئمة الأربعة<sup>(39)</sup>. واحتج بعض العلماء بحديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه: أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "أيما رجل نكح امرأة، فدخل بها، فلا يحلّ له نكاح ابنتها، وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها، وأيّما

36- وهذا إجماع. ابن رشد الحفيد، البداية، 2/ 25. لكن فيها عدا أم الزوجة من الرضاع، كما تقدم.

37- ربه يرثه رباً: في الأصل - مصدر، ومعناه: التربية: وهو إنشاء الشيء حالاً فحلاً إلى حدّ التام. والربيبة: فعيلة بمعنى مفعولة: أي مربية، وهي بنت الزوجة، سُمّيت بذلك لأنّ زوج أمّها يقوم بها غالباً تبعاً لأمّها. وجمعها: ربائب، وربيبات. والذكر ربيب، وجمعه: أرباء، مثل: دليل وأدلاء. الأصفهاني، المفردات، الفيومي، المصباح المنير، مادة: "رب".

38- ابن قدامة، المغني، 6/ 569، ابن شاس، عقد الجواهر، 2/ 38، ابن جزى، القوانين الفقهية، ص 179-180، ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد قاسم، مطابع الرياض، الطبعة الأولى، 32/ 65.

39- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 5/ 106، الجصاص، أحكام القرآن، 2/ 127، الباجي، المنتقى، 3/ 303، الكاساني، بدائع الصنائع، سعيد كمبني، كراتشي، باكستان، ط 1، 1328هـ/1910م، 2/ 258، ابن قدامة، المغني، 6/ 569، ابن شاس، عقد الجواهر، 2/ 38، ابن جزى، القوانين الفقهية، ص 179-180.

رجلٍ نكح امرأةً فدخل بها، أو لم يدخل بها، فلا يحلُّ له نكاحُ أمِّها" (40). وهو صريح في الحكم، لكنه ضعيف، فلا يصلح للاحتجاج به، فقد قال الترمذي: "هذا حديث لا يصحُّ من قبَلِ إسناده، والعملُ على هذا عند أكثر أهل العلم".

**القول الثاني:** إن مجرد العقد على البنت لا يُحرِّم الأم، بل لا بدَّ لتحريم الأم من الدخول بالبنت. ورد هذا عن عليٍّ وعبد الله بن الزبير ومجاهد وسعيد بن جبير، وهو رواية عن ابن عباس وزيد بن ثابت (41). وعن زيد بن ثابت مثل ما تقدم، إلا أنه يرى أنَّ الموت يقوم مقام الدخول، فأُمُّ الزوجة تُحرَّم بالدخول بالبنت أو بموتها، أي إن طلق البنت قبل أن يدخل بها، فلا تُحرَّم عليه أمِّها، وإن ماتت قبل أن يدخل بها حرمت عليه أمِّها. وحجة هذا القول قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ... وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ (42). وجه الدلالة: أنَّ الله تعالى ذكر أمهات النساء، ثم عطف عليهنَّ الرِّبائب، ثم عقب الجملتين بشرط الدخول في قوله: ﴿مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾. فيكون هذا الشرط عائداً إلى من ذكر من الرِّبائب وأمهات النساء (43). ووجه التفريق بين الموت والطلاق: أنَّ الطلاق - قبل الدخول - لا يتعلق به شيء من أحكام الدخول، حيث لا يجب به تمام المهر ولا العدة، وأما الموت فإنه يتلق به ما يتعلق بالدخول: من تمام المهر ووجوب العدة، فكان في حكم الدخول في التحريم (44).

**الترجيح:**

الظاهر أنَّ ما ذهب إليه الجمهور هو الراجح من أنه لا يشترط الدخول بالبنت لكي تحرم الأم، لأن قوله تعالى: ﴿مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ عائداً إلى الرِّبائب، ولا يسوغ أن يكون عائداً إلى قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ لأن السياق سيكون حينئذ: "وأُمَّهات نِسَائِكُمْ، من نِسَائِكُمْ اللاتي دخلتم بهن". وهو تركيب غير سليم (45).

- 
- 40- أخرجه الترمذي في السنن، نكاح، ما جاء فيمن يتزوج المرأة.. إلخ، 3، ح: 1117، وسنن البيهقي، 7/ 160، وابن عدي في الكامل - فيما عزاه إليه الألباني في إرواء الغليل، 6/ 286 - وضعفه الألباني.
- 41- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 5/ 106، الجصاص، أحكام القرآن، 2/ 127، الباجي، المنتقى، 3/ 303.
- 42- سورة النساء، الآية: 23.
- 43- الكاساني، بدائع الصنائع، 2/ 258.
- 44- ابن حزم، المحلّي، 9/ 142، مسألة: 1864، الجصاص، أحكام القرآن، 2/ 127، ابن قدامة، المغني، 6/ 569.
- 45- انظر: ابن حزم، المحلّي، 9/ 143، مسألة: 1864، الجصاص، أحكام القرآن، 2/ 127، الماوردي، الحاوي، 9/ 207، ابن قدامة، المغني، 6/ 569.

الحالة الثانية: أن يعتقد على امرأة، ثم يفارقها قبل الدخول بها، هل تحرم عليه ابنتها التي ليس في حجره؟

اختلف العلماء في هذا على قولين:

القول الأول: إن الربيبة تحرم على زوج أمها، وإن لم تكن في حجره، وإلى هذا ذهب جمهور

العلماء<sup>(46)</sup>. وحجتهم: قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ... وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتِكُمْ

الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾<sup>(47)</sup>. ووجه الدلالة: أن ﴿وَرَبِّبَاتِكُمْ﴾ لفظ

من ألفاظ العموم - لأنه جمع مضاف - فيعم جميع الربائب، سواء أكانت في حجر الزوج أم لم تكن، ورأوا أن

قيد ﴿فِي حُجُورِكُمْ﴾ في الآية جاء بياناً لما هو الغالب من حالها، إذ الغالب أن تكون في بيت زوج أمها.

والذي دفعهم إلى حمل القيد على أنه قيد جاء لبيان الغالب ما يلي:

أولاً: قوله تعالى بعد أن ذكر الوصفين: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

فقد ذكر الله تعالى حكم نخلف الدخول، ولم يذكر حكم نخلف وجودها في حجره، فدل ذلك على أن

وجودها في حجره وصف غير مراد، ولو كان مراداً لذكر مفهومه المخالف، كما ذكر مفهوم الوصف

المخالف في الدخول<sup>(48)</sup>.

ثانياً: حديث أم حبيبة، قالت: "قلت: يا رسول الله، هل لك في بنت أبي سفيان؟ قال: فأفعل

ماذا؟ قلت: تنكح. قال: أتحيين؟ قلت: لست بمخيلية، وأحب من شرّكني فيك أختي. قال: إنها لا تحل لي.

قلت: بلغني أنك تخطب. قال: ابنة أم سلمة؟ قلت: نعم. قال: لو لم تكن ربيبتني ما حلت لي، أرضعتني

وإياها ثوية، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن"<sup>(49)</sup>. فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر كونها

ربيبة، ولم يذكر الحجر، فدل على أنه غير شرط.

46- ابن قدامة، المغني، 6/ 569، ابن حزم، المحلى، 9/ 144، مسألة: 1864، ابن شاس، عقد الجواهر، 2/ 38،

ابن جزى، القوانين الفقهية، ص 179-180، ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 32/ 65.

47- سورة النساء، الآية: 23.

48- الجصاص، أحكام القرآن، 2/ 129.

49- أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، نكاح، باب ﴿وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ﴾، 9، ح: 5106. وقولها:

"بمخيلية" أي لست بمنفردة بك، ولا خالية من ضرة. ابن حجر، فتح الباري، 9/ 143.

القول الثاني: إنه لكي تحرم الربيبة على زوج أمها فلا بد أن تكون مقيمةً في بيت زوج أمها، وإلى هذا ذهب الظاهرية، وهو مروى عن عمر وعلي (50). وحجتهم: قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَّيَاتُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ (51). ووجه الدلالة: أن الله تعالى ذكر وصفين للربيبة حتى تحرم على زوج أمها: كونها في حجره، ودخوله بأمها، فلا يتحقق التحريم إلا بتحقق هذين الشرطين.

#### الترجيح:

والظاهر أن الراجح ما ذهب إليه الظاهرية لما يلي:

أولاً: إن صحابين جليلين صحَّ عنهما أنها قالوا بمثل ما قالت الظاهرية، هما علي وعمر رضي الله عنهما. ثانياً: كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يذكر الحجر، ليس بدليل على أنه غير مشروط، بدليل أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يذكر الدخول - أيضاً - ولم يقل أحد: إنه غير مشروط، على أنه قد صحَّ أنه قد جاء مذكوراً في بعض الروايات، ففي رواية أخرى للحديث: "لو أنها لم تكن ربيتي، في حجري" (52). فسقط الاستدلال بالحديث، بل إن ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الحجر في الحديث يقوي اعتباره (53). يقول ابن حجر: "ولولا الإجماع الحادث في المسألة، وندرة المخالف لكان الأخذ به [يقصد قول الظاهرية] أولى، لأن التحريم جاء مشروطاً بأمرين: أن تكون في الحجر، وأن يكون الذي يريد التزوج قد دخل بالأم، فلا تحرم بوجود أحد الشرطين" (54). ولا يظهر صحة ادعاء هذا الإجماع الذي ذكره ابن حجر واعتباره، مع وجود خلاف صحابين من فقهاء الصحابة الأجلاء.

50 - مصنف عبد الرزاق، 6، ح: 10834-10835، ابن قدامة، المغني، 6/569، ابن حزم، المحلى، 9/143-144،

مسألة: 1864، ابن حجر، فتح الباري، 9/158. وقد صحح الأثرين ابن حجر في فتح الباري.

51 - سورة النساء، الآية: 23.

52 - وهي عند البخاري، الجامع الصحيح مع فتح الباري، 9، ح: 5101.

53 - ابن حزم، المحلى، 9/143-145، مسألة: 1864، ابن حجر، فتح الباري، 9/159. ولم أر من روى عن صحابي آخر خلافها.

54 - ابن حجر، فتح الباري، 9/159.

## المراد من الدخول:

اختلف العلماء في المراد من الدخول الذي يحصل به التحريم الوارد في قوله تعالى: ﴿مَنْ قَدْ دَخَلَ عَلَيْكُمْ صُحُفًا فَاجْتَنِبُوا دُخُولَهَا﴾ (55) على قولين (56):  
القول الأول: هو الوطء، فقط. وهذا هو الصحيح من قولي الشافعي، والصحيح عند الحنابلة، وهو قول ابن عباس وطاوس وعمرو بن دينار وعطاء، في رواية. وحجة هذا القول: الآية، فهي قد ذكرت الدخول ولم تذكر غيره (57)، والنظر والقُبلة واللمس بشهوة ليست بمعنى الدخول، ولهذا لا يتعلق بها فساد الصوم والإحرام، ووجوب الاغتسال، فلا تلحق بالجماع (58).

القول الثاني: إن المراد بالدخول: الوطء والأسباب الداعية إليه - كاللمس بلذة ونظر أحدهما إلى فرج الآخر بلذة والقُبلة بلذة - وإن حكم هذه الأسباب حكم الوطء في التحريم. وإلى هذا ذهب الحنفية والمالكية - وهو رواية عند الحنابلة - على خلاف في التفصيل. قال الحنفية: هذا إذا لم يُنزَل، فإن أنزل لم يترتب على ما تقدم تحريم، لأنه بالإنزال تبين أنه غير مفضي إلى الوطء (59). فعلى هذا القول إذا نظر الرجل إلى فرج المرأة الذي عقد عليها بلذة، ثم فارقتها قبل الدخول المعروف، فإن أمها تحرم عليه، ولا يجوز له أن يتزوج منها. وقريب من هذا ما ورد عن ابن مسعود: أن القُبلة تقوم مقام الدخول، وعن عطاء في رواية: أن تكشفه على ما تستره الزوجة عن غير زوجها، يقوم مقام الدخول (60). واستدلوا بما روي أن

55- سورة النساء، الآية: 23.

56- ابن العربي، أحكام القرآن، 1/ 378، حيث ذكر الاختلاف في المراد من "الدخول".

57- النووي، الروضة، 112-113، ابن قدامة، المغني، 6/ 579-581، المرادوي، الإنصاف، 20/ 286، البهوتي، كشف القناع، 5/ 77-78، ابن حزم، المحلى، 9/ 144، مسألة: 1864.

58- المرغيناني، الهداية، 3/ 130.

59- المرغيناني، الهداية مع فتح القدير، البابر، العناية، مطبوع بهامش فتح القدير، 3/ 129-130، الحصكفي، الدر المختار مع رد المحتار، 3/ 32-36، البغدادي، المعونة، 2/ 814، 815، ابن العربي، أحكام القرآن، 1/ 378، الدردير، الشرح الكبير مع حاشية الدسوقي، 2/ 251، المواق، التاج والإكليل، دار الفكر، ط 2، 1398هـ/ 1978م، 3/ 462، النووي، الروضة، 7/ 112-113، ابن قدامة، المغني، 6/ 579-581، المرادوي، الإنصاف، 20/ 292-296.

60- ابن حزم، المحلى، 9/ 144، مسألة: 1864.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "لا ينظر الله إلى رجل نظر إلى فرج امرأة وابنتها"<sup>(61)</sup>. وبما رُوِيَ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إذا نظر الرجل إلى فرج امرأة حُرمت عليه أمُّها وابنتها"<sup>(62)</sup>. ووجهه من حيث المعقول: أنَّ ما تقدم أسباب داعية إلى الوطء، فتقام مقام الوطء احتياطاً<sup>(63)</sup>. ولأنه استمتع بمباشرة كالوطء<sup>(64)</sup>.

### الترجيح:

والظاهر أن الراجح ما ذهب إليه أصحاب القول الأول من أن المراد بالدخول هو الوطء، لأنَّه المتبادر من الدخول، وتحريم امرأة على رجل لا بدَّ أن يكون بنصٍّ، ولا يوجد نصٌّ، إذ ما استدل به أصحاب القول الأول من حديث لا يصلح للاحتجاج به<sup>(65)</sup>. وما علَّلوا به من الاحتياط غير واضح، ففيه احتياط حين لا يكون قد تزوج ذلك الرجل من ابنة تلك المرأة، أما إذا كان متزوجاً بها ففيه هدم لزوجية قائمة، مع ما يترتب على هذا الإلغاء من مضار، فكان الأولى والاحتياط أن نبقي عليها<sup>(66)</sup>.

ثمَّ هذا الاحتياط ما مداه؟ من يطلع على ما توسع فيه من قال بالتحريم لا يجد ضابطاً يحدُّ هذا الاحتياط، ومن ثمَّ فهم قد اختلفوا في ضبط ما هو من مقدمات الوطء: النظر بلذة! النظر إلى أيِّ موضع من الجسم يُحرَّم؟ ثمَّ اللذة! ما مقدار هذه اللذة؟ ثمَّ اللمس! أي لمس؟<sup>(67)</sup>

طروء المحرم:

إذا طرأ سبب من أسباب التحريم بعد العقد، قطع النكاح، فلو وطئ رجل أمَّ زوجته أو ابنتها بشبهة، انفسخ نكاحه من زوجته وحرمت عليه<sup>(68)</sup>، لأنَّ ما يفسد العقد ابتداء يمنع استمراره.

- 
- 61- أخرجه الدارقطني في السنن، 3، ح: 3640، عن علقمة، عن عبدالله بن مسعود، موقوفاً. قال محققه: إسناده ضعيف جداً. وانظر: البيهقي، السنن الكبرى، 7/170.
- 62- أخرجه البيهقي في السنن، 7/170، من حديث أم هانئ، أو أبي هانئ. وقد ضعّفه البيهقي لانقطاعه وجهالة في بعض رواته.
- 63- المرغيناني، الهداية، 3/130.
- 64- البغدادي، المعونة، 2/815.
- 65- ابن قدامة، المغني، 6/580.
- 66- عبد الكريم زيدان، المفصل، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1413 هـ/ 1993 م، 6/234.
- 67- للمذاهب الذي قالوا بهذا تفصيل في هذا، إيرادها لا فائدة كبيرة منه.
- 68- ابن شاس، عقد الجواهر، 2/40، ابن قدامة، المغني، 6/576، الشريبي، مغني المحتاج، 3/179.

### المبحث الثالث: حل المطلقة ثلاثاً:

قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا مَحْجَبَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا﴾ (69). وعن عائشة قالت: "جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: كنت عند رفاعة فطلقني فأبَّت طلاقاً، فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير، وإنما معه مثل هُدبة الثوب. فقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوق عُسيلته ويزوق عُسيلتك... "(70). فلكي تحل المطلقة ثلاثاً لزوجها الأول، فلا بد أن تنكح زوجاً آخر، كما هو صريح في الآية والحديث، ولا بد أن يطأها الزوج الثاني، كما هو صريح في الحديث.

وَسَرَّطُ الوَطء قال به جمهور العلماء، بل قال ابن المنذر - كما في فتح الباري -: إن العلماء أجمعوا على اشتراط الجماع لتحل للأول، إلا سعيد بن المسيب (71). فقد روى داود بن أبي هند، عن سعيد بن المسيب - في المطلقة ثلاثاً تتزوج - قال سعيد: "أما الناس فيقولون: حتى يجامعها، وأما أنا، فإني أقول: إذا تزوجها بتزوج صحيح، لا يريد بذلك إحلالاً، فلا بأس أن يتزوجها الأول" (72). وحكى ابن الجوزي - كما في فتح الباري - أن داود وافق سعيداً على هذا (73). وحجته: أن الله تعالى علق الحل على النكاح، والنكاح لم يرد في القرآن الكريم إلا للعقد.

وقد شكك في صحة هذا القول عن سعيد ابن كثير في تفسيره، وروى حديثاً من عدّة طرق، من طريق سعيد، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الرجل تكون له المرأة يطلقها، ثم يتزوجها رجل آخر، فيطلقها قبل أن يدخل بها، فترجع إلى زوجها الأول، قال: "لا، حتى تذوق

69- سورة البقرة، الآية: 230.

70- متفق عليه: صحيح البخاري، الشهادات، شهادة المختبئ... إلخ، 5، ح: 2639، وصحيح مسلم، نكاح، لا تحل المطلقة ثلاثاً... إلخ، 2، ح: 1433. وهُدبة الثوب: طرّته: أي طرفه وحاشيته، وجعها هُدب، مثال غرفة وغرف، أرادت أنّه رخو، مثل طرف الثوب، لا يغني عنها شيئاً. انظر: ابن الأثير، النهاية، مادة: "هدب"، الفيومي، المصباح المنير، مادة: "طرر، كفف، هدب".

71- ابن حجر في فتح الباري، 9/467.

72- ابن حزم، المحلى، 9/416، مسألة: 1950.

73- ابن حجر في فتح الباري، 9/467، ونسبه إليه - أيضاً - الزيلعي في تبين الحقائق، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 2/258. كما نسبه الزيلعي إلى الشيعة، والذي وجدت في كتب الشيعة خلافه. انظر: العاملي، مسالك

الأفهام، مؤسسة المعارف الإسلامية، ط 1، 1416هـ، 9/167.



العُسَيْلَةَ" (74) ثم قال: "فهذه من رواية سعيد بن المُسَيَّب عن ابن عمر مرفوعاً، على خلاف ما يحكى عنه، فبعيد أن يخالف ما رواه بغير مستند" (75).

وسند قول سعيد السابق صحيح<sup>(76)</sup>، أما الطريق التي أوردها ابن كثير، وفيها سعيد بن المسيب، فقد أعلها ابن حجر وذكر قدح النسائي فيها، وذكر أن مما يضعف تلك الطريق - أيضاً - قول سعيد بخلاف متنها، فقول سعيد الصحيح السند مما يزيد رواية سعيد الضعيفة ضعفاً، لا العكس. فلعل سعيداً لم يبلغه الحديث، فأخذ بظاهر القرآن الكريم، كما يدل على هذا سياق قوله<sup>(77)</sup>: "أما الناس فيقولون: حتى يجامعها، أما أنا، فأني أقول" ثم رجع عن هذا القول بعد اطلاعه على الحديث، كما ذكر ذلك بعض العلماء<sup>(78)</sup>، والله أعلم.

#### شروط الوطاء:

1- اشترط جمهور العلماء أن يكون هذا الوطاء في عقد صحيح، لأن الآية علقّت الحِلَّ بنكاح زوج، والزوجية لا تكون إلا بالعقد الصحيح<sup>(79)</sup>. وقال الحكم بن عُتَيْبَةَ<sup>(80)</sup>: إن النكاح الفاسد يُجِلُّ<sup>(81)</sup>، وهو قول للشافعية، ومن الشافعية من أنكروا هذا القول<sup>(82)</sup>.

74- أخرجه النسائي في السنن من رواية شعبة عن علقمة: الطلاق، إحلال المطلقة ثلاثاً، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط 1، 1383هـ/ 1964م، 6/ 121. وأخرجه من طريق سفيان الثوري عن علقمة، وليس في هذه الطريق ذكر سعيد، وقال النسائي: هذا أولى بالصواب. ووافقه الحافظ في الفتح، 9/ 467.

75- تفسير ابن كثير، 1/ 284-285.

76- صححه ابن حجر في فتح الباري، 9/ 467.

77- المصدر السابق.

78- ذكر ابن نجيم في البحر الرائق، دار المعرفة، بيروت، 4/ 61، والعيني في عمدة القارئ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط 1، 1392هـ/ 1972م، 17/ 15، وابن عابدين في رد المحتار، 3/ 410، نقلاً عن القنية لأبي الرجاء مختار بن محمود الزاهدي: أن سعيداً بن المُسَيَّب رجع عن هذا القول.

79- الزيلعي، تبين الحقائق، 2/ 257، المرغيناني، الهداية، 3/ 33، ابن حزم، المحلى، 9/ 414، مسألة: 1950، البهوتي، كشاف القناع، 5/ 403.

80- هو الحكم بن عُتَيْبَةَ الكندي الكوفي فقيه ثقة ثبت. ونقل قال ابن حجر عن جرير عن مغير، قال: كان الحكم إذا قدم المدينة أحلوا سارية النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فيها. ونقل أن الأوزاعي قال: ما بين لابتيها أفقه من الحكم. مهذيب التهذيب، 2/ 372-373، التقريب ترجمة رقم، 1453.

81- ابن حزم، المحلى، 9/ 420، مسألة: 1950، النووي، الروضة، 7/ 124.

82- المزني، مختصره مع الحاوي، 10/ 328، 330، النووي، الروضة، 7/ 124.

- 2- واشترط المالكية<sup>(83)</sup> والإمامية في قول<sup>(84)</sup> أن يكون الواطئ بالغاً. وخالفهم الجمهور، فقالوا: إن وطئ الصبي القادر على الجماع يقع به الحِلُّ<sup>(85)</sup>.
- 3- واشترط بعض العلماء - أيضاً - أن يكون وطؤه لزوجته حلالاً، وهذا الشرط يحتاج إلى تفصيل: أما وطؤها في الدبر فقد اتفقوا على أنه لا يُجِلُّها<sup>(86)</sup>، وأما وطؤها في القبل، فهو إما أن يكون مع عقد فاسد، أو مع عقد صحيح، أو دون عقد، وهو الزنى.
- وقد تقدم أنه لا بدّ من العقد - وهو إجماع - كما تقدم حكم العقد الفاسد، واختلفوا في الوطئ الحرام مع العقد الصحيح من النوع الآخر، كالوطئ في الحيض، أو صوم الفرض، أو الإحرام:
- فقال مالك وأحمد وابن حزم: لا يُجِلُّها الوطئ الحرام، لأنه وطئ محرم لحق الله تعالى فلم تحل به، كالوطئ في العقد الفاسد.
- وقال أبو حنيفة والشافعي وابن الماجشون من المالكية وابن قدامة من الحنابلة: يُجِلُّها الوطئ الحرام، لأن الآية اشترطت نكاحاً - وقد وجد - والحديث اشترط وطئاً - وقد وجد - ولأنه وطئ في نكاح صحيح في محل الوطئ، فأشبهه الوطئ الحلال.
- وذكر الحنابلة أنه إذا كان الوطئ المحرم لحقها - كأن كانت مريضة تتأذى به، أو وطأها في المسجد - فإن هذا الوطئ يُجِلُّها، قالوا: لأن التحريم هنا لا معنى لحق الله فيه<sup>(87)</sup>. وهذا التعليل قد يصلح للصورة الأولى، لكنه مشكل مع الصورة الثانية، لأن الوطئ في المسجد ممنوع لحق الله، والله أعلم.

83- الدردير، الشرح الكبير، 2/ 257.

84- العاملي، مسالك الأفهام، 9/ 164.

85- المرغيناني، الهداية مع فتح القدير، 3/ 33، المزني، مختصره مع الحاوي، 10/ 329، النووي، الروضة، 7/ 125، البهوتي، كشف القناع، 5/ 403.

86- الماوردي، الحاوي، 10/ 327، ابن قدامة، الشرح الكبير، 23/ 127.

87- الزيلعي، تبين الحقائق، 2/ 259، القاضي، المعونة، 2/ 825، 831، ابن عبد البر، الكافي، تحقيق محمد بن محمد أحميد الموريتاني، دار الهدى للطباعة، القاهرة، 1399هـ/ 1979م، 1/ 437، الدردير، الشرح الكبير مع حاشية الدسوقي، 2/ 257 - 258، المزني، مختصره مع الحاوي، 10/ 330، ابن قدامة، المقنع، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، 23/ 128، ابن قدامة، الشرح الكبير، 23/ 128 - 129، البهوتي، كشف القناع، 5/ 403، ابن حزم، المحلى، 9/ 414 - 415، مسألة: 1950.

#### المبحث الرابع: حصول الرجعة:

الطلاق الرجعي هو: أن يطلق الزوج زوجته بعد الدخول بها في نكاح صحيح أقل من ثلاث دون عوض، وما زالت المرأة في عدتها. والرجعة: إعادة المطلقة المدخول بها طلاقاً غير بائن إلى زوجها من غير عقد<sup>(88)</sup>. فالرجعة إنما تكون لمطلقة طلاقاً رجعيّاً، وإعادة المطلقة الرجعية تُسمى رجعة، وهذه المطلقة تُسمى رجعية.

ما تحصل به الرجعة:

لا خلاف في أن الرجعة تحصل بالقول، كقوله: راجعتك، ونحوها<sup>(89)</sup>، واختلفوا في حصولها بالفعل - كأن يقبلها أو يجامعها - على قولين:

القول الأول: تحصل الرجعة بالفعل، كما تحصل بالقول. وإلى هذا ذهب الحنفية والمالكية والحنابلة وجمع من فقهاء السلف. ودليل هذا القول ما يلي:

- 1- قوله تعالى: ﴿وَيُؤَلِّهُنَّ أَحَقُّ بِرِزْقِهِ فِي ذَلِكَ﴾<sup>(90)</sup>. فقد سُمي القرآن الرجعة ردّاً، والرد لا يختص بالقول، بل يحصل بالفعل أيضاً، كردّ المغصوب وردّ الوديعة.
- 2- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِنَ أَهْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾<sup>(91)</sup>. وقوله تعالى: ﴿أَطْلَقْتُ مَرَّتَانٍ فَأَمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ﴾<sup>(92)</sup>. فقد سُمي القرآن الكريم الرجعة إمساكاً، والإمساك يكون بالفعل<sup>(93)</sup>.

- 
- 88- يعرف الحنفية الرجعة بأنها: استدامة الملك القائم. ويعرفها المالكية بأنها: عود الزوجة المطلقة للعصمة من غير تجديد عقد. ويعرفها الشافعية بأنها: ردّ المرأة إلى النكاح من طلاق غير بائن في العدة، على وجه مخصوص. ويعرفها الحنابلة بأنها: إعادة مطلقة غير بائن إلى ما كانت عليه من غير عقد. انظر: الحصكفي، الدر المختار، 3/397، الدردير، الشرح الكبير، 2/415، الشريبي، مغني المحتاج، 3/335، البهوتي، كشاف القناع، 5/392.
  - 89- ابن رشد الحفيد، البداية، 2/63، ابن قدامة، المغني، 7/283.
  - 90- سورة البقرة، الآية: 228.
  - 91- سورة البقرة، الآية: 231.
  - 92- سورة البقرة، الآية: 229.
  - 93- الكاساني، بدائع الصنائع، 3/182.

القول الثاني: لا تحصل الرجعة بالفعل. وإلى هذا ذهب الشافعية والظاهرية، وهو رواية عند الحنابلة. ووجه هذا القول: أنّ الرجعة استباحة بضع، يصح بالقول، فلم يصح بالفعل - مع القدرة على القول - كالنكاح<sup>(94)</sup>.

الفعل الذي تحصل به الرجعة:

الذين قالوا: إنّ الرجعة تحصل بالفعل، اختلفوا في الفعل الذي تحصل به الرجعة على ثلاثة أقوال: القول الأول: تحصل الرجعة بكل فعل يدل على الرجعة، كأن يجامعها، أو يمس شيئاً من أعضائها، أو ينظر إلى فرجها بشهوة، سواء أنوى بذلك الرجعة أم لم ينوها. وإلى هذا ذهب الحنفية، وهو رواية عن أحمد في الوطء خاصة. ووجه هذا القول: أنّ الرجعة استدامة النكاح، فتحصل بكل فعل يختص بالنكاح، والفعل الذي يختص بالنكاح: هو الفعل الذي لا يحلّ إلا بالنكاح، وما تقدم من الأفعال لا تحلّ إلا بالنكاح، ولو لم تجعل رجعة لكان مرتكباً للإثم.

القول الثاني: تحصل الرجعة بالفعل، كالوطء واللمس والقبلة، بشرط أن تكون بنية. وإلى هذا ذهب المالكية. ووجه هذا القول: أنّ الفعل تصرف مبيح للوطء، فلم يصح إلا بالنية، كالتلفظ في عقد النكاح. القول الثالث: لا تحصل الرجعة بفعل من الأفعال إلا بالوطء، سواء أنوى بذلك الرجعة أم لم ينوها. وأما سائر الأفعال من تقبيل أو مس أو نظّر، فلا تحصل به الرجعة. وإلى هذا ذهب الحنابلة. ووجه اعتبارهم الوطء رجعة: قياس العدة على مدة الإيلاء، بجامع أن كلاً منها مدة يُفضي انتهاءها إلى بينونة، والإيلاء يرفع بالوطء، وكذلك العدة. أو قياس الوطء على العدة في مدة الإيلاء، بجامع أنها وطء في مدة يُفضي انتهاءها إلى بينونة. ووجه عدم اعتبار غير الوطء رجعة: أنّ غير الوطء فعل لا يتعلق به إيجاب عدة ولا مهر، فلم تحصل به الرجعة، كالنظر<sup>(95)</sup>.

المبحث الخامس: وجوب العدة:

العدة: الإحصاء، يقال: عدت الشيء عدّة: أحصيته. وهي في الشرع: انتظار المرأة عند زوال النكاح مدة، دون زواج<sup>(96)</sup>. والاستمتاع له دخل كبير في وجوب العدة وعدمه، قال تعالى:

94- ابن قدامة، المغني، 7/ 283.  
95- الكاساني، بدائع الصنائع، 3/ 183، الحصكفي، الدر المختار، 3/ 397، البغدادي، المعونة، 2/ 859، ابن جزي، القوانين الفقهية، ص 202، الدردير، الشرح الكبير مع حاشية الدسوقي، 2/ 417، الشريبي، مغني المحتاج، 3/ 337، ابن قدامة، المغني، 7/ 283، البهوتي، كشاف القناع، 5/ 395، ابن حزم، المحلّ، 10/ 18، مسألة: 1982.  
96- ابن المهام، فتح القدير، 4/ 135، ومن العلماء من يفسرها بالأيام نفسها. انظر: الشريبي، مغني المحتاج، 3/ 384.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدْوٍ تَعُدُّونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾<sup>(97)</sup>. فقد ذكرت الآية أن الطلاق قبل المس لا يوجب العدة. وقد أجمع العلماء على أن المرأة التي دخل بها زوجها دخولاً حقيقياً تجب عليها العدة، سواء أفرقها بموت أم بغيره، وسواء أكان عقد النكاح صحيحاً أم فاسداً، لعموم قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ شَهْرٍ﴾<sup>(98)</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي بَيَّسَنَ مِنَ الْمَجْصِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾<sup>(99)</sup>. كما أجمع العلماء على عدم وجوب العدة على المرأة التي فارقها زوجها بغير موت قبل الدخول الحقيقي وقبل الخلوة<sup>(100)</sup>، لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدْوٍ تَعُدُّونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾<sup>(101)</sup> ولأن العدة - في غير الوفاة - تجب لبراءة الرحم، وقد تيقنا هنا من براءة الرحم.

ولا فرق في هذا بين الوطء الحلال أو الحرام، كأن يطأها في نهار رمضان أو حائضاً أو محرمة، أو محرمة بحج أو عمرة، وسواء أكان الوطء في القبل أم في الدبر<sup>(102)</sup>. كما أن العدة تجب بوطء الزوج الصغير ما دام يولد لمثله، وتجب على الصغيرة إذا وطئت، وكانت تطبق الوطء، وإن كانت ممن لا يمكن حملها<sup>(103)</sup>.

97- سورة الأحزاب، الآية: 49.

98- سورة البقرة، الآية: 228.

99- سورة الطلاق، الآية: 4.

100- ابن جزى، القوانين الفقهية، ص 203، البهوتي، كشاف القناع، 5/ 476.

101- سورة الأحزاب، الآية: 49.

102- ابن عابدين، رد المحتار، 3/ 504، 509، ابن نجيم، البحر الرائق، دار المعرفة، بيروت، 4/ 138، 139، ابن شاس، عقد الجواهر، 2/ 258، ابن رشد الجدل، المقدمات، 1/ 507، 517، 542، ابن رشد الحفيد، البداية، 7/ 72 - 79، 87 - 88، الدردير، الشرح الكبير، 2/ 300، 468، 469، الشريبي، مغني المحتاج، 3/ 384، الرَّملي، النهاية، 7/ 127-128، المحلّي، شرحه على المنهاج مع حاشية قليوبي وعميرة، مصطفى الباوي الحلبي، مصر، ط 3، 1375هـ، 4/ 39-40، ابن قدامة، المغني، 7/ 448، البهوتي، كشاف القناع، 5/ 477. ويقول ابن جزى في القوانين الفقهية، ص 203: "كلُّ طلاقٍ أو فسْخٍ وجب فيه جميعُ الصداقِ وجبت فيه العدة، وحيث سقط الصداقُ كلُّهُ، أو لم يجب إلا نصفُهُ سقطت العدة". ولم أجد للحنفية تصريحاً بغير الوطء، ولا لكونه محرماً، أو غير محرّم ولا لكونه في الدبر.

103- انظر المراجع السابقة.

وأما الاستمتاع بغير الوطء - كالقبلة والضممة - فقد صرح المالكية والحنابلة بأنه لا يوجب العدة<sup>(104)</sup>، ولم أجد لغيرهم تصريحاً بهذا. كما أني لم أجد تصريحاً بحكم الاستمتاع بالمفاخضة، أو قضاء الشهوة في أي مكان من الجسم غير القبل والدبر، لكن هذه الأمور داخلية في حكم الخلوة عند من يقول بها، لأنها عادة لا تكون إلا مع الخلوة.

والذي يبدو أنّ الوطء في الدبر والاستمتاع بقضاء الشهوة في غير القبل لا يوجبان العدة، لأنّ الأصل في العدة في الطلاق أنها لبراءة الرحم، أو الغالب فيها ذلك<sup>(105)</sup>، واستمتاع من هذا النوع ليس سبيلاً إلى الحمل يقيناً، فهو أشبه بالضممة والقبلة. وقد تقدم في المسألة الأولى أنّ من العلماء من يعتبر الخلوة كالدخول في وجوب العدة.

الخاتمة في أهم ما ورد في هذا البحث:

- \* أجمع العلماء على أن الصداق يستقر جميعه بالوطء في القبل، ولا يسقط بعد ذلك أبداً، سواء أفارقها أم لم يفارقها، وسواء أكان فراقه بموت أو غيره، إذا كانت الفرقة من جانبه.
- \* والاستمتاع يستقر به الصداق، وإن كان حراماً، سواء أكان التحريم بسبب منها أو منه أو منها، كما لو استمتع بها في نهار رمضان، أو أثناء الحيض، أو كانا محرّمين بحج أو عمرة أو أحدهما.
- \* يتقرر المهر في الوطء بالدبر عند الحنفية والشافعية والحنابلة - وهو المذهب عند المالكية - لأنه نوع من الاستمتاع وقد استوفاه الزوج، فوجب الصداق.
- \* اختلف العلماء في اعتبار الخلوة كالدخول في استقرار الصداق وكماله، ووجوب العدة، على ثلاثة أقوال.
- \* الخلوة الصحيحة: هي الخلوة الحقيقية، دون مانع حسيّ أو شرعيّ، بعد نكاح صحيح.
- \* أثر الخلوة - عند من اعتبرها كالدخول - لم يقتصر على كمال الصداق واستقراره، بل هي كالدخول أيضاً في: ثبوت النسب، ووجوب العدة، وحرمة زواجه بأخواتها، أو بخامسة في عدتها، ووجوب النفقة في مدة العدة، ومراعاة وقت طلاقها، حيث يوصف طلاقها بالبدعيّ والسنيّ.

104 - الدردير، الشرح الكبير، 2/ 469، البهوتي، كشاف القناع، 5/ 477.

105 - ابن قدامة، المغني، 7/ 448.

- \* الخلوّة ليست كاللدخول في وجوب الحد، والإحصان، وحلّ المطلقة ثلاثاً لزوجها الأول، والرجعة.
- \* قال المالكية: إنّ طول الإقامة عند الزوج يقوم مقام الدخول، في النكاح الصحيح في استقرار الصداق. والمراد بطول الإقامة: طول إقامة الزوجة عند زوجها بعد أن زُفّت إليه دون دخول.
- \* أجمع العلماء على أن من عقد على امرأة ودخل بها دخولاً حقيقياً حرمت عليه أمّها. وأجمعوا على أن من عقد على امرأة، ودخل بها دخولاً حقيقياً، حرمت عليه ابنتها إذا كانت في حجره.
- \* إذا طرأ سبب من أسباب التحريم بعد العقد قطع النكاح، فلو وطئ رجل أم زوجته، أو ابنتها بشبهة، انفسخ نكاحه من زوجته وحرمت عليه.
- \* شرط الوطء الذي تحل به المطلقة ثلاثاً قال به جمهور العلماء، وخالف فيه سعيد بن المسيّب. اشترط جمهور العلماء أن يكون هذا الوطء في عقد صحيح.
- \* جمهور العلماء على أنه لا يشترط الإنزال مع الوطء الذي تحل به المطلقة ثلاثاً، وخالف في هذا الحسن البصري، فاشترط الإنزال.
- \* لا خلاف في أن الرجعة تحصل بالقول، كقوله: راجعتك، ونحوها، واختلفوا في حصولها بالفعل - كأن يقبلها أو يجامعها - على قولين. الذين قالوا: إنّ الرجعة تحصل بالفعل، اختلفوا في الفعل الذي تحصل به الرجعة على ثلاثة أقوال.
- \* أجمع العلماء على أن المرأة التي دخل بها زوجها دخولاً حقيقياً، تجب عليها العدة، سواء أفارقها بموت أم بغيره، وسواء أكان عقد النكاح صحيحاً أم فاسداً.
- \* وأجمع العلماء على عدم وجوب العدة على المرأة التي فارقها زوجها بغير موت قبل الدخول الحقيقي وقبل الخلوّة.

\*\*\*\*

# الشعر الصوفي في نيجيريا: دوافع واتجاهات

موسى عبدالسلام مصطفى أيبكن

التمهيد:

انتشرت اللغة العربية في غرب إفريقيا مع انتشار الإسلام فيها، وتأسست الممالك والدول التي اشترك فيها العرب والعجم في غانة ومالي وسنغى وبرنو. واعتنى الملوك بشأن التعليم واستعانوا بالعلماء في تفهم أمور الدين وتطبيق الشريعة وفروعها، فقصدوا بلاد العرب المجاورة لهم للاستفادة، واستقدموا إلى بلادهم العلماء العرب لنشر العلوم بينهم حتى نبغ الكثيرون، فألفوا الكتب وكتبوا الشعر في الأغراض التي تناسب بيئتهم<sup>(1)</sup>.

واليوم بين أيدينا عدد ضخم من نتاج أفكار الأدباء ممثلة في قصائد جياشة، وتآليف كثيرة في شتى العلوم العربية والإنسانية. وكلها تشير إلى رقيّ المستوى الفكري واللغوي الذي كان يتمتع به أولئك الأدباء<sup>(2)</sup>. لقد ترك علماءنا من الشعر ما لا يستهان به إذا عرض على ضوء النقد الأدبي بحيث لو اطلع عليه عربي قحّ أو ناقد نزيه لما وسعه إلا أن يطأطئ رأسه إعجاباً بالقريحة التي جادت به رغم بعد الدار وعدم توفر الأسباب<sup>(3)</sup>. والحركة الصوفية في نيجيريا لها دور هام وحساس في الأدب العربي النيجيري منذ نشأته إلى يومنا هذا، لأن أكثر العلماء والمفكرين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين الميلاديين متصوفون ومنتسبون إلى طريقة من الطرق الصوفية، ولا يكاد الباحث أن يطلع على آثارهم إلا وفوجئ

1- آدم عبدالله الالورى: لباب الأدب، مطبعة الثقافة الإسلامية، أغيني، الطبعة الثانية، ص 52.

2- مشهود محمود محمد جمبا: دراسة تحليلية للوصف في الشعر العربي النيجيري، أطروحة قدّمتها صاحبها إلى قسم اللغة العربية بجامعة الوردن لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وأدائها عام 2005م.

3- آدم عبد الله الالورى: مصباح الدراسات العربية في الديار النيجيرية، الطبعة الأولى، ص 9.



بشيء ملموس من النزعة الصوفية، وفوق ذلك فإن لهم إنتاجاً شعرياً كثيراً عاجلوا فيه أفكاراً صوفية تغنوا فيه بأذواق الصوفية وأحوالهم.

ولاغربة في ذلك، فإن المتبع لتاريخ دخول الإسلام وانتشاره في غرب إفريقيا عموماً، وفي نيجيريا خصوصاً عبر العصور والأطوار يدرك الدور الفعال الذي لعبه التصوف منذ ظهور الإسلام في نيجيريا، ولم تزل للطرق الصوفية حتى الآن آثار بارزة في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية في نيجيريا. أما الموضوعات التي يدور حولها الشعر الصوفي فهي في الغالب لا تتجاوز عن الحب الإلهي والمديح النبوي والاستغاثة والتوسل ومدح شيوخ الطرق الصوفية واللعنات والوصول والمناجاة والزهد والرمز. الشاعر النيجيري المسلم: نشأته وتكوينه:

يمرّ الشاعر النيجيري المسلم في طور نشأته وتكوينه ببيئتين تؤثران غالباً على تكوين شخصيته وتطبع نوعيته، الأولى: هي البيئة الإسلامية العامة التي تمجد الفضيلة وترفع قيمة الحياء وتقدر الاحترام وتمقت الرذيلة، ويكتسب الناشئ هذه الخصال في الأسرة وفي مجالس الوعظ والإرشاد التي يكتظ بها البلد. والبيئة الثانية: هي البيئة التعليمية الخاصة حيث يدخل الكتاب في سن مبكرة، ويتعلم فيه القرآن الكريم والدروس العربية والإسلامية الأولية، ثم ينتظم في إحدى المدارس العربية النظامية بالمدرسة الابتدائية ثم الإعدادية ثم الثانوية ثم الجامعية<sup>(4)</sup>.

وظيفة الشعر في المجتمع النيجيري المسلم:

فمن هذا المنطلق تنشأ وظيفة الشعر عند الشاعر النيجيري المسلم من منابع الدين والأخلاق، لا تنفصل عنها قط. فيحس الشاعر بإسلامه قبل أن يحس بفنه، ويخضع أدبه لتعليمات دينه ولا العكس. والشعر له أداة للدفاع عن عقيدته السمحة، ومناصرة الحق، ونشر الأخلاق الفاضلة، وقمع الفساد والإلحاد، وذلك كله وظيفته الشعر العربية في المجتمع النيجيري المسلم<sup>(5)</sup>.

لقد ظهر في نيجيريا شعراء مفلقون نافسوا إخوانهم في بلاد العرب منذ قرنين ماضيين في أبواب الشعر كلها وأجادوا فيها وابتكروا. ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن الشعر العربي ليس بحديث العهد في نيجيريا بل إنها هو فن نال عند علمائها رواجاً وإقبالا شديدين منذ زمن قديم.

4- مقالة قدمها الدكتور مشهود محمود محمد جيبا في الندوة التي أقيمت بالقسم العربي بجامعة ولاية كوفي عام

2006 بعنوان "القيم الخلقية في الشعر العربي المعاصر في مدينة إورن"، نيجيريا، ص 5.

5- المرجع نفسه، ص 6.

ومن الأهمية بمكان أن نقسم الشعر العربي النيجيري إلى ثلاثة أقسام: فالقسم الأول هو الشعر العربي الذي قيل في القرن التاسع عشر الميلادي، والقسم الثاني هو الشعر الذي نظمته الشعراء في القرن العشرين، والقسم الثالث هو الذي قيل في مستهل القرن الحادي والعشرين.

الشعر العربي النيجيري في القرن التاسع عشر الميلادي:

يعتبر القرن التاسع عشر عصر النهضة الشعرية في نيجيريا، لأن العلماء هم الذين رفعوا الشعر إلى قمته بتحويل منثور إلى منظوم في ميادين العلم كلها، وإن كانوا لا يرون أنفسهم شعراء. وهؤلاء العلماء هم الذين قاموا بدور الشعراء، لأنهم، هم وحدهم، الذين استطاعوا أن يجيدوا اللغة العربية ويتذوقوا سحرها وبلاغتها، ويتخذوها أداة للتعبير عن مشاعرهم، وينظموا الشعر كما نظمته شعراء العربية وأدباؤها<sup>(6)</sup>. وبالرغم من أن هؤلاء العلماء قد استخدموا معظم بحور الشعر العربي إلا أن الأبواب التي طرقتها لا تزيد على ثمانية وهي: الثناء على الله، المديح، الوصف، الرثاء، الوعظ، الإرشاد، الحكم والأمثال، والفكاهة<sup>(7)</sup>.

وفارس هذا الميدان هو الشيخ عبدالله بن فودي (1766-1829م) فإنه شخصية بارزة تفخر البلاد بمؤلفاته لا لكثرتها وقيمتها فحسب، ولكن لشمولها معظم العلوم من تفسير وفقه وتصوف وتاريخ وحديث ولغة ونحو وصرف ومنطق وعلم الكلام وعروض وأدب. ولا شك أنه كان أكبر عالم وكاتب عرفته إفريقيا الغربية. فلا غرابة أن يلقبه الناس بعربي السودان لمجهوده الجبار، وفضلاً عن ذلك فهو شاعر مفلق وقائد بارع وسياسي محنك<sup>(8)</sup>.

لقد ترك الشيخ عبدالله بن فودي أكثر من مائتي كتاب في مختلف الفنون<sup>(9)</sup>. ومن أروع قصائده هي جيميته التي نظمها في مدح شيخه جبريل بن عمر وأخيه عثمان بن فودي، مطلعها:

عج نحو أضواج الأحبة من مج واشرب من الأنشاج ماء الزعيج<sup>(10)</sup>

- 
- 6- علي أبوبكر: الثقافة العربية في نيجيريا من 1750 إلى 1960م عام الاستقلال، مؤسسة عبدالحفيظ البساط، بيروت، الطبعة الأولى، ص 327.
- 7- المرجع نفسه، ص 327.
- 8- المرجع نفسه، ص 264.
- 9- آدم عبدالله الالورى: المرجع السابق، ص 20.
- 10- عبدالله بن فودي: تزيين الورقات بجمع بعض ما لي من الأبيات، مكتبة أبوبكر أيوب، كانو، نيجيريا، ص 20-24.

شج الدموع على منازلهم بها  
قف عندها سل من بها فعسى تجب  
وله شبول ناثبون منابه  
فغدى له نور الزمان مساعدا  
إظهار دين الله بين عدوه  
جبريل من جبر الإله لنا به  
شمس الضحى بزغت بغرب فانتحت  
متفنن متبحر في علمه  
لم يخش من إظهار دين الله من

وفي مدح الثاني قال:

عثمان من قد جاءنا في ظلمة  
ودعا إلى دين الإله ولم يخف  
بشرى لأمة أحمد ببلادنا  
كم سنة أحييتها وضلالة  
وطلعت في أرض عواندها عدت  
استعظمتها أهلها فاستأسدت  
من أراد دين الله يمحو عزها  
فقصمتها بالبيض من آياته  
ولكل فرعون طغى موسى سطي  
فابيض وجه الدين بعد محاقه  
والدين في عز ونهج منهج  
والسنة الغراء صبح ينجلي  
وتفجرت للدين من بركاته  
سعد الزمان بهم وزايد خيرره

واشف الجنان من الهموم الدمج  
حوجاء أو لوجاء ترضى من شج  
والشبل عند السبر مثل الخزرج  
أو ساعدا في فتح باب مرتج  
لم يلتفت لمكذب متلجلج  
دينا حنيفا مستقيم المنهج  
للشرق تشرق في قريش وخزرج  
متعطف متلطف للمعجج  
مستهزئ أو لائم متمجمج

فأزاح عنا كل أسود دجدج  
في ذاك لومة لائم أو فجفج  
السودان في هذا الزمان المبهج  
أحمدتها جمرا ذكا بتأجج  
وتخالفت سنن النبي الأبهج  
وصدت دوين الدين باب الولوج  
فقمعتها قمع القوي الأعوج  
وأسنة سنن النبي الأدعج  
وقضية عاصت عليا تنفج  
واسود وجه الكفر بعد تلبج  
والكفر في ذل ونهج منهج  
والبدعة السوداء ليل يدج  
عين الحياة تذلل ماء الحشرج  
فبجهم غفران ذنبي أرتجج

وقد استحدثت الشاعرة النيجيرية السيدة رقية، جدة الشيخ عثمان بن فودي، مؤسس الدولة الإسلامية بصكتو (1804م) شمال نيجيريا، بحراً جديداً سمته "بحر الكريم"<sup>(11)</sup> لم يعرف هذا البحر من البحور العربية الستة عشر ولا في بحور المولدين، ولم يعرف في غير هذه البلاد "نيجيريا"، تفاعيله: فاعلن فعولن أربع مرات. وقد نظمت هذه القصيدة على طراز البحر المذكور يفتتح كل بيت بحروف الهجاء، تقول:

لا يخاف بخسا كل من رجاه	الكريم يقبل تائبا أتاه
لا ينال عزا من تبع هواه	بالعذاب يجزي من عصي ويجزي
أن في جهنم سجن من عصاه	تب لعل ترحم يا أخي فاعلم
من عصي محمداً هكذا جزاه	ثم من تمرد في اللظى يصفد
خيره يقتر قد عظم بلاه	جبره يكسر عيشه يكدر
قد لقي جهولا ما جنت يده	حائرا ذليلا قد كسى نحولا
إن في معادك ما سعت تراه	خل عن مرادك وأكثر اجتهادك
من له صناعة واجب تقاه	دم على الجماعة والزم القناعة
في الجحيم يحشر قعرها مأواه	ذو الجلال قدر أن من تجبر
أمره عظيم جل في علاه	ربنا كريم لم يزل رحيم
ماعمى العمى يامن قلبه عماه	زارع الخطايا حاصد البرايا

وبهذه الصورة تبرز القصيدة إلى آخر الحروف الهجائية.

#### الشعر العربي النيجيري في القرن العشرين:

يمتاز القرن العشرون عن القرن التاسع عشر بكثرة عدد العلماء الذين يجيدون اللغة العربية، ويرجع الفضل في ذلك إلى إنشاء مدرسة الشريعة في كانو سنة 1934م التي أخذت تخرج دفعاتها سنويا منذ

سنة 1938م<sup>(12)</sup>، وقد نتج عن ازدياد عدد هؤلاء المتخرجين أن ارتفع عدد المتكلمين باللغة العربية، والذين يجيدون كتابتها، وقد لعب عدد كبير من هؤلاء الخريجين دوراً هاماً في تطوير الحياة الثقافية في البلاد<sup>(13)</sup>.

ولم يتطور الشعر العربي النيجيري في هذه الفترة تطوراً كبيراً، يجعله مختلفاً عن الشعر في القرن الماضي، فقد ظل العلماء والأدباء يقرضون الشعر على نفس المنوال، فيتناولون نفس الأغراض التقليدية كما يستعملون نفس الأسلوب التقليدي في كثير من الأحيان غير أنه من الطبيعي أن يتلاشى شعر الحرب والحماسة. ومن الطبيعي كذلك أن تضاف بعض الأغراض الجديدة التي لم تطرق في القرن التاسع عشر الميلادي، فالبيئة الجديدة والحياة السياسية الحديثة تستلزمان إدخال شيء ما من التجديد في الشعر في موضوعه وأسلوبه<sup>(14)</sup>.

ومن أمراء الشعر في القرن العشرين الوزير جنيد الصكتي (1906-1996م) ويعتبر هذا العالم من أكبر علماء نيجيريا في وقته، تبلغ إنتاجاته إلى خمسين كتاباً ما بين منشور ومنظوم<sup>(15)</sup>، ولعل الشيخ جنيد أول شاعر نيجيري يصف لنا الطائفة شعراً في زيارة له إلى البلاد العربية عام 1945م، يقول:

مطار وكنا كالطيور البواكر <sup>(16)</sup>	خرجنا بعون الله في غلس إلى الـ
تدافع أمواج الهوا في الهواجر	فطارت بنا من يرو ولاجة الهوى
وتملؤه من صوتها بالزواجر	تخوض عباب الجو عند ارتفاعها
ملينة بالخيش برا لزائر	مجوفة فيها كراسي صفقت

12- علي أبوبكر، المرجع السابق، ص 344.

13- المرجع نفسه، ص 344.

14- شيخو أحمد سعيد غلادشي: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، شركة العيبكان للطباعة والنشر، الرياض، الطبعة الثانية، ص 147.

15- ذكر هذا العدد الأستاذ عبد الرحيم عيسى الأول في ورقة نشرت له مجلة قسم الأديان بجامعة إلورن، العدد السابع عشر عام 2003م بعنوان "من أدب الرحلة العربي في نيجيريا، دراسة تحليلية لمخطوطة الرحلة الفاخرة إلى ليبيا والسودان والقاهرة للوزير جنيد"، ص 6.

16- سافر الشيخ جنيد إلى الخرطوم عام 1945م مع وفد أرسلته الحكومة النيجيرية إلى السودان والحجاز للنظر في أمر الحجاج وخاصة الذين يعجزون عن الرجوع إلى أوطانهم بعد أداء فريضة الحج لأسباب مالية أو صحية، وكانت الحكومة قد بلغها أن حالة أولئك كانت سيئة جداً في الحجاز والسودان.

ونفعل فيها كل شيء نريده  
إلى أن أنخناها وفازت يد النوى  
وعند غروب الشمس تم نزولنا  
فلاحت لآلي الكهرباء كأنها  
فلما انتهينا واطمأنت نفوسنا  
على شاطئ النيل المبارك قد رسا  
نمتع فيه كل يوم عيوننا  
به ألف مصباح تضيء كأنها  
زوارقه تأتي وتذهب دائما  
إلى آخر أبياته.

وهذا النوع من الشعر جديد في الشعر العربي النيجيري، ومن قصيدة أخرى له يصف الطائرة

إذ قال:

يا من يصعد أنفاس بأنفاس  
اصبر قليلا فإننا سوف تحملنا  
صعادة تتبارى في تجولها  
طيارة صوتها عال مجوفة  
أناة في نزول عند ما بلغت  
مملوءة بكراسي ملينة  
تنقاد طائعة في كنف صاحبها  
فاعجب لها إنها عنقاء مغربة  
شوقا بخرطوم ذات الورد والآس  
رعادة الهوا ملمومة الرأس  
شهب السماء التي ترمي بأقباس  
زمكها كذوابى الشاهق الرأس  
إلى المحطة تمشي مشي مياس  
بالخيش تلبس ترويجا لجلاس  
كدابة ذلت في كف سواس  
جاءت تذكر عباس بن فرناس<sup>(17)</sup>

-17 هو عباس بن فرناس الأندلسي. توفي سنة 887م انظر ترجمته في:

## الشعر العربي النيجيري في القرن الحادي والعشرين:

ليس هنالك فرق كبير في الشعر العربي النيجيري بمطلع هذا القرن بيد أن الشعراء تكاثروا في البلاد جنوبا وشمالا بكثرة المدارس العربية الإسلامية في عواصم البلاد وقراها، وبتعدد دواوين ذات اتجاهات وجدانية فنية، وموضوعات جديدة لا تقل روعة بأشعار العرب.

ففي مدينة إلورن مثلا بلغ الشعراء في المدينة ما يقرب مائة شاعر شبان على أقل تقدير<sup>(18)</sup> تتفاوت مواهبهم الشعرية وقدراتهم الإبداعية، يميون بها المناسبات الدينية والاجتماعية والعلمية، ولا تسأل عن بلدان أخرى في مشارق نيجيريا ومغاربها. ومن الجدير بالذكر أن الشعراء اليوم يصدرون الدواوين حيناً بعد آخر على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم ومواهبهم غير أن إخراج الدواوين في القرنين الماضيين على شكل كتاب كان صعباً لقلّة التسهيلات، فوجدت أكثرها إن لم يكن كلها على نمط المخطوطات. وأما الذين نشروا دواوينهم في هذا القرن الجديد فنكتفي بذكر بعضهم للتمثيل لا من باب الحصر، منهم: مصطفى سعيد أولامى أطلق على ديوانه بـ: حاوية الخلجات<sup>(19)</sup> وأخوه عبد اللطيف سعيد أولامى بعنوان: قطرات الخاطر<sup>(20)</sup> وعيسى ألبى أبو بكر بعنوان: الرياض<sup>(21)</sup> وعمر إبراهيم بعنوان: حديقة الأزهار<sup>(22)</sup> وسبحات الأنوار من سحبات الأسرار للشيخ محمد الناصر الكبري<sup>(23)</sup> وهكذا دواليك.

وفي طليعة هؤلاء الشعراء الدكتور عيسى ألبى أبو بكر، المحاضر بقسم اللغة العربية بجامعة إلورن، وقد ظل الشاعر يقرض الأشعار حول حوادث تاريخية سياسية كانت أم ثقافية، بل ما من حادثة هامة تحدث في نيجيريا وفي العالم بأجمع إلا وله قصيدة تستعيد ذكراها نحوها جبا لها أم بغضا عليها.

18- ذكر هذا العدد على وجه التقريب الدكتور مشهود محمود محمد جمبا في الندوة الثقافة التي أقيمت بالقسم العربي

بجامعة ولاية كوغى، المرجع السابق، ص 4.

19- مصطفى سعيد أولامى: حاوية الخلجات، مطبعة الحكمة للتصميم والنشر لاغوس، نيجيريا، الطبعة الأولى، عام 2005م.

20- عبد اللطيف سعيد أولامى: قطرات الخاطر، مكان النشر غير مذكور، الطبعة الأولى، 2004م/1425هـ.

21- عيسى ألبى أبوبكر: الرياض، تحت الطبع.

22- عمر إبراهيم: حديقة الأزهار، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، عام 1996م.

23- محمد الناصر الكبري: سبحات الأنوار من سحبات الأسرار، قام بطبعه ونشره محمد الثاني علي عام 1999م.

وإليك بعض الأبيات التي قرضها الشاعر في رثاء الشيخ محمد كمال الدين الأدبي، مؤسس جمعية أنصار الإسلام، يقول فيها:

ويح النفوس فقدنا من يزكيها	بالصالحات وبالتنوير يحييها <sup>(24)</sup>
دق النعاة قلوبا في جوانحها	قالوا بأن "ألورن" مات مفتيها
هذى الوجيعة عمت كل حاضرة	فمن يصادف بين الناس آسيها
أعطاه ربي علوما ليس يملكها	إلا الذي لرضا الرحمن يفشيها
إن الأحاديث من يحيي مجالسها	والآي في الصوم من يبدي مراميها
إن التلاوة من يدري طرائقها	حقوقها واعيا دوما يوفيهها
نرجو بقاء "كمال الدين" في وله	والروح تهفو إلى الرحمن باريها
يارب رفقا بأرواح المشايخ في	يوم التنادي وكن في الروع هاديها
وارحم إلهي كمال الدين قدوتنا	من جاء هذى الدنيا يجلي دياحيها
يارب صل على المختار سيدنا	باني الشريعة في الدنيا وراعيها

أسباب نهضة الشعر في نيجيريا:

وقد كان اتصال نيجيريا بالعالم الخارجي عن طريق الرحلات العلمية، والاختراعات الجديدة الحديثة في تطوير آفاق الشعر وموضوعاته وكان عاملا قويا في أغراضه ومناحيه. وهذا الاتصال بطبيعة الحال عمل بحق على تقدم الشعر تقدما حثيثا في اتجاهاته وتنوع أغراضه، وبالتالي أصبح الشعر يتناول موضوعات جديدة من مخترعات العصر.

ثم وجود كتب عربية أدبية حديثة في المكتبات العامة والخاصة بها في ذلك دواوين شعراء العرب - قدامى ومعاصرين - هو عامل جوهري في تكوين شعراء نيجيريا ورسوخ أقدامهم في الشعر بشتى أغراضه. ومن أسباب نهضة الشعر في نيجيريا، رجوع وفود البعثات العلمية للدراسات الجامعية في اللغة العربية والدراسات الإسلامية من البلاد العربية وغيرها، وقد ساهم على نهضة الشعر بكثير، فهؤلاء المبعوثون عادوا بأفكار جديدة، وثقافة واسعة بعد أن قضوا فترة تقل وتكثر حسب تخصصاتهم ومستوياتهم<sup>(25)</sup>.

24- ألقى الشاعر هذه القصيدة يوم انتقال الشيخ كمال الدين إلى جوار ربه عام 2005 م.

25- موسى عبد السلام مصطفى أبيكن: الاتجاهات الوجدانية في شعر عيسى ألبى: دراسة تحليلية، أطروحة درجة دكتوراه، قدمت إلى جامعة ولاية لاغوس بوحدة اللغة العربية، 2007 م، ص 60-65.



## الصوفية ودورها الحيوي في المجتمع النيجيري:

الصوفية مذهب يدعو إلى تصفية النفس وتزكيتها والتقرب إلى الله بالنوافل بعد اكتمال الفرائض للحصول على محبة الله<sup>(26)</sup>. وقد كان أغلب مسلمي غرب إفريقيا يلتزمون بطريقة من الطرق الصوفية كالقادرية والتيجانية والسنوسية، ومن رجال هذه الطرق تكونت الجيوش الإسلامية التي قادها الدعاة الذين أسسوا الدول والحكومات الإسلامية بغرب إفريقيا على أنقاض الدول والحكومات الجاهلية الأولى، وكان من أسباب تمسك الأفارقة بأوراد هذه الطرق وأذكارها ما يأتي:

أولاً: اعتقادهم أن لها تأثيراً كبيراً في استجابة دعواتهم أو أن الولي الذي انتسبوا إليه إنما حصل على درجة الولاية من تلك الأذكار.

ثانياً: بقية فطرة التدين في نفوس الكثيرين منهم، فلم تطب نفوسهم بالاعتصار على الفرائض دون إضافة النوافل الخيرية إليها باعتبار أن الفرائض رؤوس الأموال، والنوافل هي الأرباح التي تؤخذ منها لتكميل الفرائض إذا انتقضت.

ثالثاً: كان العلماء يتشددون في ضرورة الأخذ بالتجويد لقراءة القرآن فيهرب العوام من تلاوته إلى الالتزام بالأوراد التي يحصل لهم فيها الأجر والثواب دون تلاوة القرآن التي ياثمون منها إذا لم يجودوا القرآن كما يجب<sup>(27)</sup>.

وفي التصوف الإسلامي يقول عبد الرحمن عبد العزيز الزكوى النيجيري:

إن التصوف بالإسلام موصول	حقيقة إنه زهد وتبئيل <sup>(28)</sup>
فلا انفكاك له عن ديننا أبداً	مهها تقاومه من قوم أباطيل
فإنه الشرح للإحسان حيث أتى	من النبي حديث عنه منقول
إن التصوف صابون وتزكية	للقلب ثم لهذا الدين تجميل

26- آدم عبد الله الالورى: دور التصوف والصوفية والسلفية المالكية المصرية والمغربية في غرب إفريقيا، دار التوفيق

النموذجية للطباعة، الأزهر، مصر، ص 7.

27- آدم عبد الله الالورى: توجيه الدعوة والدعاة في نيجيريا وغرب إفريقيا، مطبعة الأمانة، القاهرة، مصر، الطبعة

الأولى، 1979م، ص 79-80.

28- عبدالرحمان عبدالعزيز الزكوى: نشر الياسمين في قصائد عيد الأربعين، مطبعة مركز العلوم، أوتب، أغينى،

لاغوس، نيجيريا، ص 7.

لكن عمدته علم ومعرفة  
فإنما العلم قلب للتصوف بل  
فبالتصوف كان الدين منتشرًا  
ومن تصوف قد طابت معيشته  
أقبل على الله واترك ما يفوت أخي  
إن التصوف دون العلم تضليل  
من ادّعه على الجهلات معذول  
حقا ولا قال في هذا ولا قيل  
دعاؤه لو دعا الرحمن مقبول  
طوبى لمن هو بالتسييح مشغول

وإذا كان للصوفية سيئات في البلاد الأخرى فإن لها حسنات في نيجيريا بوجه خاص، وفي غرب

إفريقيا بوجه عام، ولا أدل على ذلك من قول شاعرهم:

لو لم تكن طرق الأذكار منتشرة  
ولا يزال بها الإسلام منتشرًا  
وإن أعانت ذوي التبشير شرذمة  
رامت قضاء على الطرق التي نصرت  
لعمر الكفر بالتبشير أوطاننا<sup>(29)</sup>  
بالحق منتصرًا قد فاق أديانا  
قد صيروها لهدم الدين أعوانا  
ليخلو الجو للتبشير إعلانا

آراء العلماء في التصوف:

انقسم الذين كتبوا في التصوف إلى ثلاثة أقسام: قسم ذموا التصوف كل الذم، ولم يروه من الإسلام في شيء، وقسم مدحوه مدحا كله وزعموا أن من لم يتصوف كان ناقصا في الإسلام، وقسم آخر اعتدلوا وأخذوا منه ما صفا وتركوا منه ما كدر<sup>(30)</sup>. فأما الذين غلوا في ذم التصوف وحملوا على الصوفية حملات شعواء فمنهم الحافظ بن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس، لم يجد هذا العالم في كتب التصوف نفعا ولا خيرا، ولم يسلم من قلمه اللاذع أحد من أعلام الصوفية، ثم جاء تلاميذه وحملوا على التصوف، وطاردوا الصوفية قاطبة من حظيرة الإسلام.

أما الذين مدحوا التصوف والصوفية فأشهرهم الإمام الغزالي حيث يقول في كتابه المنقذ من الضلال: ... إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير،

29- آدم عبد الله الالورى: الإسلام اليوم وغداً في نيجيريا، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1985م/1405هـ،

ص 123.

30- آدم عبد الله الالورى: توجيه الدعوة والدعاة، ص 54.

وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به<sup>(31)</sup>.

أما الذين اعتدلوا في ذم التصوف ومدحه فأقربهم إلى عهدنا الأستاذ محمد رشيد تلميذ الإمام محمد عبده أحد أركان النهضة الحديثة يقول: ... وقد غلا في علم التصوف فريقان: فريق عده كله بدعا محدثة يجب ردّها وعدم قبول شيء منها إلا إذا كان له أصل يقوم عليه من الكتاب والسنة أو الإجماع ولا يعتد بما يسمونه الإشارة ولا الكشف لأنها ليسا من طرق الدلالة في الشرع واللغة، ومنهم من جعل ما ثبت عن الصوفية ديناً يتقرّب به إلى الله وينكر به مخالفه كما ينكر على من خالف الكتاب والسنة ونصوص الأئمة، ويؤمن بمتشابه التصوف كمتشابه الكتاب والسنة مع أن الصوفية أنفسهم أنكروا ذلك. والصواب أن كلام الصوفية ككلام غيرهم من أهل العلوم الشرعية كعلم الكلام والأصول والفقه والفلسفة، وكتبهم ككتب هؤلاء، فيها الخطأ والصواب.

#### الطرق الصوفية في نيجيريا:

الطريقة عبارة عن رابطة روحية تضم أفراداً وجماعات من الناس، تحت قيادة واحدة يسمعون لهذه القيادة ويطيعون لها في المنشط والمكروه<sup>(32)</sup>. ولقد كانت الطريقة عند الصوفية رابطة روحية تتخذ التعبد والتنسك وسيلة لإصلاح النفس والمجتمع، وتقوم بالرياضة التي تسمو بها النفس إلى درجة الاتصال الروحي بالملأ الأعلى، فيصير كل ما عدا الله باطلاً حقيراً في أعينهم، فلقد أدت خدمتها الجليلة للدعوة الإسلامية خصوصاً في غرب إفريقيا حتى لم يبق مجال لنكران فضلها في نشر الإسلام<sup>(33)</sup>.

ويرتبط تاريخ دخول الطرق الصوفية في نيجيريا بدخول الإسلام فيها، ولقد كان للطرق الصوفية دور ملموس ومحمود جبار في نشر الإسلام وثقافته في بلاد السودان، وانتشرت هذه الطرق في القارة الإفريقية منذ عهد قديم.

وقد انتشرت في نيجيريا خمس طرق صوفية وهي: الطريقة القادرية والتيجانية والسنوسية والمهدية والعروسية، ولكن الطريقة القادرية والتيجانية تالان منها شهرة أكبر من الطرق الثلاث الأخرى.

31- المرجع نفسه، ص 59-60.

32- المرجع نفسه، ص 79.

33- آدم عبد الله اللورى: الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، الطبعة الثانية، 1978م/1398هـ

ص 42-43 بتصرف يسير.

### الطريقة القادرية:

الطريقة القادرية رابطة روحية أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني ومركزها الأصلي في بغداد، وأول من نشرها في بلاد السودان الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني<sup>(34)</sup>. وقد ساهم في نشر الطريقة القادرية في هذه البلاد - نيجيريا - كل من أبناء الشيخ عثمان بن فودي وأخيه عبد الله ووزراء دولته وتلاميذهما. والشيخ عثمان بن فودي نفسه قطب من أقطاب هذه الطريقة. إليك هذه الأبيات التي عربها الشيخ عبد الله من اللغة الفلانية لأخيه عثمان بن فودي يتوسل بها إلى الله بواسطة الشيخ عبد القادر الجيلاني:

يا رب عالم باطن كالظاهر	أحب الذي يدعى بعبد القادر <sup>(35)</sup>
يا رب يا متفضلاً لعباده	صلي بفضلك عند عبد القادر
إن المسيء لدى الأكبر يلتج	فلجأت عند الشيخ عبد القادر
إن كنت لم أحسن فشيخي محسن	إنني لمنتسب لعبد القادر
ما كنت أهلاً أن أجاب أحب لكو	ن وسيلتي درجات عبد القادر
إيماننا مع سنة في طاعة	زدني بها بالشيخ عبد القادر
صني من الشيطان من إنس ومن	جن بجاه الشيخ عبد القادر
يارب من تعذيب قبر نجّني	يارب من درجات عبد القادر
يارب ثقل لي موازيني غداً	يارب من درجات عبد القادر
أرني إلهي وجه أحمد ملجئي	خير الوري بمكان عبد القادر
وأجب دعاء رجالنا ونسائنا	يارب من درجات عبد القادر
ودعاء كل المؤمنين تقبلن	نظمي وسيلتنا لعبد القادر
عربت ما لأخي وشيخي عجمة	متوسلين معا بعبد القادر

### الطريقة التجانية:

نشأت هذه الرابطة الروحية في الجزائر على يد الشيخ أحمد التجاني، وأعظم من نشر هذه الرابطة في غرب إفريقيا هو الحاج عمر الفوتي، ومما زاد في انتشار الطريقة التجانية كثرة زيارة شيوخها الكبار من

34- المرجع نفسه، ص 43.

35- عبد الله بن فودي: المرجع السابق، ص 46.

خارج الدولة ، فإن هذه الطريقة انتشرت في نيجيريا بفضل مشايخها الوافدين من خارج الوطن النيجيري وعلى رأسهم الشيخ إبراهيم الكولخي السنغالي الذي لعب دوراً هاماً في انتشارها، ونالت من الشهرة على يديه شهرة فائقة، فلقد قبل التيجانيون النيجيريون دعوته بكل إخلاص وصدقوه تصديقاً جازماً، وكذلك اعترفوا له بعلمه وفضله وأدبه وتصوفه اعترافاً لا ينكر بين أوساط المجتمع النيجيري، ودونك شذرة من القصيدة يعرض فيها الشيخ أبو بكر عتيق بعض مناقب الشيخ أحمد التجاني مؤسس الطريقة التيجانية، قال:

مقام أبي العباس أعلى وأكبر	مناقبه ليست تعد وتحصر <sup>(36)</sup>
كراماته تربو على القطر والحصي	وتربو على عدّ الرمال وتكثر
لساني عن تعداد فضل إمامنا	كليل فما من فضله المرء يذكر
فماذا يقول المرء في مدح من غدا	خليفة خير الأنبياء ألا اعذروا
خليفته العظمى ووارثه الذي	به نال فضلاً ليس يحويه دفتر
فكان يراه كل وقت وساعة	شفافها عيانا كيفما شاء يحضر
فيسأله عن كل شيء يرومه	ويأخذ من فيه العلوم وتسطر
رقي لمقام الختم والكتم فأنتهي	رقاه إلى ما ليس يدري فيخبر
وعلمه المختار سراً مطلساً	وذلك مما ليس تحويه أسطر
ومن ذاك ما أولاه من سر ورده الـ	لذي نال تاليه الولاية تصدر
علت قدماه فوق أعناق الأوليا	من أول نشأة إلى يوم يحشر
وكان يمد الأولياء جميعهم	فمن بحره كل الأكابر تصدر

وهناك طرق صوفية أخرى غير هاتين المذكورتين وإن كانت أقل انتشاراً في نيجيريا وهي:

#### الطريقة السنوسية:

أسس هذه الطريقة الشيخ محمد بن علي السنوسي، أنشأ زوايا وأربطة حول برقة وفزان وتشاد وكانم وبرنو، وعمل على نشر العلم والإسلام في تلك الربوع<sup>(37)</sup>. ويعتبر سلطان برنو الشيخ بكَرْ غَزَبِي أول من أدخل الطريقة إلى برنو بعد استرداده للعرش عام 1902م ولكن لم يكد الشيخ عمر سَنَدُكْرَا يخلفه

36- محمد أمين عمر: هدية الأحباب والخلان، مطابع الزهراء للعلم العربي، القاهرة مصر، ص 64.

37- آدم عبد الله الالورى: الإسلام في نيجيريا، المرجع السابق، ص 45.

في عام 1923م عقب وفاته حتى هجر الطريقة<sup>(38)</sup> ولا يزال هناك أفراد من مريدي هذه الطريقة في كل من ولايات برنو وأدماوا وكنو النيجيرية.

#### الطريقة المهدية:

وهي المنسوبة إلى الشيخ محمد أحمد بن عبد الله المهدي، ولقد شقت طريقها إلى بلاد نيجيريا على ركب المغامر السوداني رابع في عام 1893م. وقد دفعته انتصاراته في الحروب أن يقوم بدعاية المهدية، فصدفته القبائل التي تغلب عليها في حروبه فانتشرت الطريقة في برنو وأدماوا<sup>(39)</sup>. وبدأ نفوذ المهدية يتدهور في نيجيريا نتيجة قتال زعيمهم حياة الدين، وذاعت شهرة الطريقة بمجهودات الشيخ سعيد بن حياة في كنو وجيغاوا وكشنا وزنفرا وغيرها<sup>(40)</sup>.

#### الطريقة العروسية:

سميت بهذا الاسم نسبة إلى الشيخ أحمد بن محمد عروس. انتشرت الطريقة في الجماهيرية الليبية وفي تونس والسوس الأقصى والقيروان ومصر وفي تمبكتو وغيرها من بلاد إفريقيا. ولقد شقت طريقها إلى نيجيريا على ركب الجالية الليبية الوافدة إلى نيجيريا، ولا يستبعد أن يكون وصولها إلى بلاد نيجيريا في حياة الشيخ عبدالسلام الأسمر على يد شيخه الشيخ سيدي فتح الله أبي راس الذي مات برنو<sup>(41)</sup>. ومهما يكن من أمر، فإن أول مقدم للطريقة العروسية في مدينة كنو هو الشيخ علي بشير من الجالية الليبية المستوطنة في مدينة كنو، وأول زاوية عرفت في المدينة كانت في محلة شاطار، وكان الليبيون يجتمعون فيها للذكر، ثم انضم إليهم غيرهم من الوطنيين. هذه هي الطرق الصوفية السائدة في نيجيريا، ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الطريقتين القادرية والتيجانية كانتا أكثر أتباعا من الطرق الثلاث المذكورة.

#### أغراض الشعر الصوفي:

قد اشتمل الشعر الصوفي على أغراض الشعر المتداولة بين الشعراء، منها ما كانت جزء من هذه الأغراض الشعرية العربية المعروفة، ومنها ما استقل به شعراء الصوفية دون غيرهم، ومن موضوعات

38- علي أوبكر: المرجع السابق، ص 208-209.

39- المرجع نفسه، ص 108-110.

40- شيخ عثمان كبر: الشعر الصوفي في نيجيريا، ص 108.

41- المرجع السابق، ص 108-110.

الشعر الصوفي وأغراضه الحب الإلهي، التوسّل والاستغاثة، المدح النبوي، مدح الشيوخ، اللعنات، الزهد، الوصول، المناجاة، الرمز وغير ذلك.

### الحب الإلهي:

وهو من الموضوعات الرئيسية في الشعر الصوفي، أخذوا هذا الفن أداة يستعينون بها على بث حبهم للذات الإلهية، ووصف أحوالهم ومقاماتهم في طريق هذا الحب، وتعتبر رابعة العدوية أول من تغنى بلفظة الحب واستعملته صريحا في أشعارها، وتوجهت بها إلى الله تعالى وحده، وقالت: إنها لم تعبد الله خوفا من عقابه ولا طمعا في ثوابه بل مقصودها من عبادته حبه الخالص المجرد، والمطالعة إلى وجهه الكريم، واستمتاعها بجماله الأزلي. لقد روي أنها قالت في إحدى مناجاةها مع ربه: إلهي إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقني بنار جهنم، وإذا كنت أعبدك رغبة في الجنة فأحرمنيها، وإذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني يا إلهي من جمالك الأزلي. وفي ذلك الغرض يقول الشيخ محمد الناصر الكبري القادري، زعيم الطريقة القادرية في نيجيريا، يقول في ديوانه:

القلب أنفس شيء أنت مالكة	فاحرسه علك يوما تسكن الغابا(42)
القلب بيت تجلي فيه خالقه	فكن على الباب حجّابا وبّابا
وكن غيوراً على مولاك لا تدعن	إلا بـإذنك غيراً يقرع البابا
فأنت تدخل وعلا كل طارقة	علبه أنى ترى التوابا توابا
تظن أن شياها القلب ليس لها	راعٍ سواك وأن الحق قد غابا
يرى خواطرك اللآتي تطوف بها	خيرا وشرا وترغيبا وإرهابا
لا أستبيح لشخص أن يرى كتيبي	إلا لمن يصلح الصندوق والبابا
وأستعين على الوغال بالملك ال	قهار حتى أراني أسكن الغابا
يدعوك ربك أن تخلو به أبداً	ألا تكون ديوثا ليس محجّابا
أقبل عليه ولازم بابيه فعسى	يكسوك من حلال التوفيق جلبابا
واجعلك بين يديه نصب منظره	من ظن أن غاب عن مولاه قد خابا

فالحب الإلهي بحر يعوم فيه العارفون الربانيون ويشربون منه دائماً بدون ريٍّ كل على قدر ما من به عليه ربه، وهذا الفن قد تناوله مشائخ الطرق الصوفية في دواوينهم بغزارة.

## الاستغاثة والتوسل:

ومن العلماء من ينظم شعراً في الدعوات والتوسلات ليتوسل به إلى مولاه، فإذا كان من مشايخ الطرق الصوفية تداول هذا النظم بين مريديه وأنشدوه في حلقات ذكرهم، وإذا لم يكن منهم تداول بين طلبته، وقد ينظم بعضهم ديواناً كاملاً في هذا الفن كما فعل الوزير الجيند الصكتو<sup>(43)</sup>. ومنظوماته التوسلية من أحسن ما نظم في نيجيريا في هذا الميدان، منها قوله:

أشكو إلى الله ربي	من سوء جور زماني <sup>(44)</sup>
قد كنت فيما تقدم	أمرّ فوق حصاني
فالآن ها أنا أمشي	تقلني القدمان
الخف صار ركوبي	تدوسه الرجلان
أجول في كل يوم	وضرني جولاني
أبيت تعبان ليلي	لكثرة الدوران
يارب يسر أموري	وفرجن ما دهاني
والطف بعبدك واكشف	همي بغير توان
بجاه خير البرايا	المختار من عدنان
عليه صل صلاة	تدوم دوم الزمان
وآله ثم سلم	مانور القمران

ولا يخفى ما لهذه المنظومة من جمال في الألفاظ وعذوبة في الموسيقى، فألفاظها كلها سهلة لا غرابة فيها، ومعانيها ظاهرة لا تعقيد فيها، ويستطيع كل قارئ أن يفهمها في سهولة ويسر.

ومن الذين خاضوا في الغمار الشيخ محمد الجامع اللبيب المشهور بتاج الأدب إذ قال:

بدأت بسم الله روعي به علا	وأثني عليه الله فعلي به علا <sup>(45)</sup>
وصل إلهي للنبي وآله	وسلم عليه فائق العد محصلا

43- الوزير الجيند من كبار علماء نيجيريا، له مؤلفات تزيد على ستين كتاباً منشوراً ومنظوماً، وقد فاز بأوسمة عدة منها الدولية ومنها الوطنية، عاش ما بين 1906-1997م.

44- شيخو أحمد سعيد غلادنتي: المرجع السابق، ص 175.

45- زكريا إدريس أبو حسين: الاستغاثة المنظومة بأسهاء الله الحسنی، دار النور، أوتشي، ايدو، الطبعة الأولى، ص 39.



إليك وجهت القصد يا خالق الورى  
وأوقفت قصدي باب خير نبيك  
توسلت بالهادي وأصحابه كل  
وأن كنت لم أحسن فإنهم محسن  
جميلك أهبني نور ذاتك أجمل  
وقهر همومي يا إلهي ومالك  
وتنسم القصيدة بالسهولة، وليس فيها فكرة عميقة، كلها دعاء واستغفار ورجاء.

#### المدح النبوي:

هو من أهم أغراض الشعر الصوفي، وقد تطرق إليه شعراء الصوفية في مختلف العصور والأوطان، نبع هذا اللون الأدبي من علماء عرفوا بالعلم والصدق والأمانة. ولقد ازدهر هذا الفن على يد الصوفية، وأذاعوه بعد وفاة الرسول الله صلى الله عليه وسلم واتخذوه قرينة يتقربون به إلى الله سبحانه وتعالى. ومن الأفاض الذين خاضوا في الميدان الشيخ عثمان بن فودي يقول في المديح النبوي لما حبسته الظروف من القيام بالحج قائلًا (46).

هل لي مسيرة نحو طيبة مسرعا  
لما فشا رياه في أكنافها  
غودرت أنهمل الدموع موبلا  
أقسمت بالرحمان مالي مفضل  
أحكي المصاب بشوقه لما عرى  
قد كدت شوقا أن أطير لقبه  
شمس الضحى تاج الهدى بحر الندى  
هو وابل عم الأنام نعامه  
لو سرت طيبة نلت غاية مطلبي  
أوطار قلبي أن أزور دياره  
تهمي دموعي إن ذكرت فناءه  
لأزور قبر الهاشمي محمد  
وتكمش الحجاج نحو محمد  
شوقا إلى هذا النبي محمد  
إلا حوى حب النبي محمد  
ما لي لذيد العيش دون محمد  
ما لي سرور دون زورة سيد  
لاخير إلا في اتباع محمد  
بل كل خلق الله دون محمد  
متعفرا في ترب نعل محمد  
دمعي يفيض بفقد هذا المرشد  
قد ذابني حب النبي محمد

46 - كتاب بدون اسم المؤلف، وفيه دالية الشيخ عثمان بن فودي، نشره الحجاج ثامن يتنندا، بمدينة كنو.

إن قيل لي من ذا يشوقك في الورى  
تبا لمن يأبى اتباع طريقه  
قوموا بنا نسعى إلى شمس الهدى  
نار الغرام تجول بين ضلوعنا  
نسمو على كل الورى بسموه  
كم حائر بين الظلام به هدي  
أخلاقه لم يؤت خلق مثلها  
فأقول إني عاشق لمحمد  
يا طول كربته هنا وكذا غد  
نطوي الفلا لنزور قبر محمد  
ندلي له بمحبة وتودد  
ونسود بينهم وسودد أحمد  
أنواره في كل قلب موحد  
من ذا الذي يحوي كرامة أحمد

هذا غيض من فيض من مدائح جادت بها قرائح الصوفيين النيجيريين، ولا يزال شعراء المسلمين يرتعون في رياض المدائح النبوية إلى اليوم.

مدح الشيخ:

هناك مدائح متعددة صدرت من شيوخ الطرق الصوفية تقديراً لأولئك الشيوخ الذين استفاد الناس بعلومهم وتأليفهم، فإنهم يرون المديح لهم من باب الوجوب نظراً إلى المنافع والخيرات التي استقوها منهم، ولعل رائية الشيخ يوسف عبدالله اللكوجي التجاني خير شاهد لهذا الباب، وقد مدح فيها شيخه إبراهيم الكولخي السنغالي بعدة صفات تستحق لشخصيته، فاستمع إليه وهو يقول:

برهام فيضاه ما حل العلام به  
كم قرية جهلت من قبل ما عرفت  
يا غوثنا شيخنا يا من له كشف  
ما زلت أقطع في الحضرات حائرة  
ألزمت في ذكره بل ما أفارقه  
أفانيت في حب إنياس مرشدنا  
أجمعت ما افترقت من قبل ما جمعت  
قبل بروزك فينا نحن في دهم  
وأنت جازيتني بالإذن رمته  
إلا وأبكم ذاك العلم مقتصره (47)  
الشيخ نورها بالفيض مفتجره  
لولا علومك بيت العلم ما نشره  
العين من عينه السر منتشره  
أشربت من فيضه خمراً إذا عصره  
جليت في ذاته يا قائد الزمره  
أظهرت ما خفيت من قبل ما حرره  
أبهر بعصرك ذا فالنفع مكثره  
منحت لي نفحة والحمد مستمره

47- يوسف عبدالله اللكوجي: تحفة أحباب الرسول الفخيم، مطبعة موييمي العملية، كدونا، نيجيريا، الطبعة الثالثة،

وأنت منيتنا وأنت رغبتنا  
 وأنت داخلنا في الجنة الخيره  
 وأهدى صلاتي على الهادي وعترته  
 وصحبه المرشدي للزمره النضره  
 يتضح جليا في هذه الأبيات صفات صوفية، وكيف يصف المادح ممدوحه، أو المرید لشيخه،  
 وفيها اصطلاحات تنفرد بها شيوخ الطرق الصوفية لمشاخهم، وما أكثر هذا النوع من القصيدة في  
 دواوينهم !!!.

ومن قصيدة أخرى في مدح الشيوخ يقول الحاج سيد حمل بن محمد في مدح الشيخ إبراهيم:  
 دروا أنني قد خضت بحر المحبة  
 لذا الشيخ ذي النورين دنيا وأخرة (48)  
 هوشين إبراهيم إنياس كولخي  
 بن الحاج عبد الله مولود طيبة  
 محبة هذا الشيخ عين العبادة  
 بعيد إقام الفرض فاختم بسنة  
 إذا قمت بالتوحيد لله وحده  
 وتعليم مفروضات عملا بسنة  
 فما بعد ذا إلا محبة شيخنا  
 فلا تتشاغل بالعلوم الجدالة  
 فمالي شغل بالعلوم العميقة  
 ولا أعرف الإعراب فالحب خدمتي  
 فلست أبالي إن خطات لجهلتي  
 وثقت بأن الشيخ يعلم محبتي  
 فلا تسألوني عن علوم وحكمة  
 فعلمي حب الشيخ برهام قدوتي  
 فمدحي لهذا الشيخ لو كنت قادراً  
 لأكتبه بالتبر لا بممدادتي

#### اللعنات:

هذا لون آخر من الشعر الصوفي النيجيري وهو جديد ونادر في أشعارهم قلما يتعاطاه الشعراء  
 الصوفيون، وإذا ساقته الظروف الحرجة إليه، ولم يجدوا له مخرجا أو حلا ممكنا سواه فيلجأ إليه شاعرهم  
 يعرب استيائه به لاعتنا الحادث ومسببه بأنواع من اللعنات بكل جراءة وبسالة. مثال ذلك ما قاله الشيخ  
 أبوبكر عتيق التيجاني لما قام الزعماء السياسيون في مدينة صكتو وما جاورها من تحريق الزوايا التيجانية،  
 واضطهاد التيجانيين ومنعهم الوظيفة والأذكار في المساجد، وكل ذلك بمساعدة بعض الحكام  
 والسلاطين، ومن أجل ذلك كتب الشيخ أبوبكر هذه القصيدة يتوسل بها المولى عز وجل أن ينتقم من  
 أعداء الطريقة التيجانية فقال:

48 - الحاج سيد حمل بن محمد أول زكري: تحفة المجذوب في مدح المحبوب، ص 1-6.

يا ربنا بذاتك العظيم  
وبنيك وما أنزلته  
بالأنبيا والرسل والأملاك  
بجملة القرآن يا إلهي  
بصاحب الفيضة إبرهاما  
وما حوت جوهرة الكمال  
وما حوى السيف وحزب البحر  
بشيخنا التجاني تاج الأصفياء  
بكل قطب في طريقه ظهر  
يا ربنا بكل قطب وولي  
فلتهلكن رب أمير حوسا  
زلزل أموره وأفسد رأيه  
واسلبه ملكه وبالفضيحة  
وأنزل عليه ربنا صاعقه  
تمحقه ولا تبقى أثرا  
ياربنا ياربنا يا مقتدر  
رب كما قد هدم المساجدا  
رب كما قد شتت الجماعه  
وخذه أخذه عزيز مقتدر  
واغرقه في بحر العذاب المولم  
وبدلن في أرضه سلطانا

وباسمه ووصفه الفخيم (49)  
عليه بالسر الذي أودعته  
بالعرش والكرسي وبالأفلاك  
وما احتوى فيه من النواهي  
وكل من بحبه قد هاما  
وسرها أدعوك ذا الجلال  
وسورة الإخلاص مثل القدر  
ختم الولاية إمام الأتقياء  
من عصره لوقت ذي الفيض ظهر  
وكل مؤمن بحبك مليء  
سلطان "صكتو" امنعنه الأوسا  
خرب دياره وعجل نعيه  
حربه يا رب وبالقيح  
تهلكه ولتنزلن ماحقه  
في بيته فلا يرى ولا يرى  
فأهلكه يارب هلاك مقتدر  
فاهدمه يارب يكون بائدا  
شتت له العيال والجماعه  
فاهلكه يا الله هلاك مقتدر  
ومزقته ربنا وقصم  
يكون في طريقنا معوانا

هذه الأبيات تعطي صورة كاملة لمدى انفعالات الشاعر بالحادث وموجدته على السلطان الذي أعان الأعداء ضد التيجانيين في البلاد. وهذه القصيدة إن دلت على شيء فإنها تدل على أن الشيوخ في

الطرق الصوفية مستعدون لشن هجوم على أي شخص تعدى على طريقتهم مهما بلغت في المجتمع منزلته، قويا كان أم ضعيفا، سلطانا كان أم غيره.

الزهد:

لشعراء نيجيريا قصائد كثيرة نظموها على طراز شعراء العرب فراراً من زخارف الدنيا وملذاتها. وهذا النوع من الشعر يصدر غالباً من الشعراء الصوفيين النيجيريين، ولعل دالية الدكتور داؤد أحمد أديكيلكن التيجاني، إمام مسجد جامعة إبادن وخطيبه تمثل هذا الغرض وهو يقول في مطلعها:

وَنور الشيب فوق الرأس باد <sup>(50)</sup>	ألم يأن التزوّد للمعاد
بياض ذؤابه بعد اسوداد	كفي للمرء تذكرة ووعظا
بأن القمح يقرب للحصاد	إذا جاء المشيب إليك فاعلم
ويصرف عنه كل ذوي الوداد	وإن المرء نحو القبر يدنو
هناك غدا ينام بلا وساد	هناك المرء يترك فيه فردا
وأنت لأهل مكرمة معاد	وكيف تنال تاج ذوي الولايه
رجالا من عباقرة الزهاد	تمذهب مذهب العقلاء أعني
وفقه من تلامذة الجنيد <sup>(51)</sup>	رجال تصوف ورجال علم
فملا ميلاً إلى سبل الرشاد	لقد آن التزوّد للمتأب
لهم زاد وأنت بغير زاد	أترغب أن تكون رفيق قوم
وهمك في تذوقك السلاد <sup>(52)</sup>	فكيف تنال حظ ذوي المعالي
وشغلك بالحرير وبالجكاد <sup>(53)</sup>	لباس الأصفياء لباس تقوى
هم الأحياء وإنك كالجهاد	فكيف تنال فوز رجال صدق

أمثال هذه الأبيات موجودة بكثرة في دواوين شعراء الصوفية، وبالجملة تلك نماذج من الأشعار الصوفية بوجه عام وهي أكثر دوراناً في قصائدهم.

- 
- 50- داؤد أحمد أديكيلكن التيجاني: القصيدة الدالية الزهدية وبيان فضل التعلق برجال الصوفية، الناشر: موباجولا، أدى ولاية عوشو، نيجيريا، ص 5-8.
- 51- المقصود بالجنيد هنا هو أبو القاسم الخزاز، زاهد بغدادي حج ثلاث مرات على الأقدام، عرف بسيد الطريقة الجنيدية، وعرف أيضاً بطاؤوس العلماء، المرجع نفسه.
- 52- السلاد: نوع من الأطعمة اللذيذة يأخذها المثقفون وأهل الثروة، وهي من طعام الأديب.
- 53- الجكاد: نوع من الثياب جميل المنظر، غالي الثمن.

## الوصول:

هي طريق الوصول إلى الله تعالى بالتوبة والورع والزهد والصبر والمراقبة والتوكل والرضا بقدر الله خيره وشره. فالصوفي يجتهد حتى يجتاز من مقام إلى مقام أعلى منه حتى يصل إلى الله تبارك وتعالى، وليس معنى الوصول الاتصال بشيء، أو يتصل هو بشيء<sup>(54)</sup>. قال الإمام الغزالي رحمه الله: إن الوصول هو الرؤية والمشاهدة بسر القلب في الدنيا، وبعين الرأس في الآخرة، فليس معنى الوصول اتصال الذات بالذات تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولقد اتخذ الصوفيون هذا الموضوع غرضاً في شعرهم، وفي ذلك قال الشيخ محمد الناصر الكبري في إحدى قصائده متواصلاً:

وصلت إلى الحق الحقيقية بالحق	بعيد مقامي في حقيقة حقه <sup>(55)</sup>
بعلم وذوق واكتشاف محقق	تعلمت علم الجمع من قبل فرقه
محقت نظام الكائنات بنظرتي	وأفانيت من بعد إحكام سحقه
وإن كنت تدري ما الوصول فحيهل	إلينا لتدري كيف حالة صدقه
ستعلم عند الامتحان مكانتي	وترفعني من تحت قولي بفوقه
وإن كنت لاتدري الوصول فسلمن	وكل أمرنا لله مرشد خلقه
لقد عرف الأقطاب أني عارف	بحي وسار في سنا نور برقه
ستنيك مصر إن سئلت خيارها	بحالي وإني فيه يعقوب شوقه
وفي بلد الله الحرام أعزة	دروني أولو التحقيق في حق حقه
وفي طيبة الأنوار فاح كرامة	عبير من المولى ففزت بنشقه
إلى الله فوضت الأمور مسلماً	وطالب توفيق لإرشاد أفقه
فإننا من الظن الجميل بربنا	على منهج المختار طه ووقفه
عليه صلاة الله ما ذر شارق	وما حل مشتاق لبارق شرقه

54- شيخو عثمان كبر، المرجع السابق، ص 163.

55- محمد الناصر الكبري: المرجع السابق، ص 25.

فهذه القطعة تلويح إلى أن الوصول درجة يصل إليها الصوفي المتفاني في الله الواحد القهار، والناظم من كبار علماء نيجيريا الفارغين للدعوة الإسلامية من ناحية، والداعية إلى الطرق الصوفية من ناحية ثانية، وزعيم الطريقة القادرية في حياته من ناحية ثالثة.

#### المناجاة:

وهو لون أدبي روجه الصوفيون نتيجة الخلوات التي يخبون فيها أنفسهم لمناجاة ربهم، ويدور حول الشكر والاستغفار والدعاء والابتهاال والشكوى وغير ذلك مما يكون بين العبد وربّه، وقد تداوله العلماء النيجيريون بكثرة، إذ لم يكن عالم وله باع طويل في الشعر العربي النيجيري إلا وتناوله في أشعارهم كثرة أم قلة.

والسبب في تعاطيه واضح وضوح الشمس، لأن العلماء لا يتركون مناجاة ربهم طرفة عين، راكعين أو مضطجعين، لعلهم بذلك تتحقق أمانيتهم في الدارين، وفي مقدمة هؤلاء السلطان محمد بلو، وقد تفنن في هذا الغرض إلى حد كبير، وذهب بشعر المناجاة إلى أبعد مدى، ولعل رائيته المسماة بالقصيدة المستجابة تمثل هذا الغرض إذ قال:

أناديك يا مولاي في السر والجهر  
لتكفيننا من كل سوء وفتنة  
إلهي ومولاي ترى ما العدا سعوا  
فنصرا عزيزا يا إلهي لقومنا  
فلا تجعلنا فتنة للذين هم  
وأتمم لنا نورا أرادوا خموده  
واسق بلاداً كان فيه مقامنا  
أغثنا أغثنا أنت مالك أمرنا  
فقد مسنا ضر فضاقت فجاجنا  
ونسألك التأييد بالروح في الذي  
إلهي رجائي لا تخيب دعوتي

بأسئلك الحسنى السنية كالدر (56)  
وترزقنا رزقا كفافا مدى العمر  
وكادوا به فينا من الكيد والمكر  
فمنك نرجي الفوز باللطف والنصر  
عتوا واعتنوا بالظلم والفجر والكفر  
ولو كره الكفار من ذلك النور  
ومن بركات الأرض أخرج على الفور  
وعجل بيسر لا يعقب بالعسر  
فمنك نبغي الكشف من ذلك الضر  
نريد فمن أيده بآء بالخير  
إليك رفعت البث فاشفعه باليسر

وليس في هذه المختارة غير مناجاة ودعوات من العبد الذليل إلى الله الغني الكريم، قرضها الشاعر بلسان متواضع مؤمن بالله واثق به، كاف عباده من البليات. وهنالك عشرات أمثالها في ديوانه، وإنما أتينا بهذه الأبيات لشهرتها بين طلاب العلم والعلماء.

الرمز:

وهو منبع فوار من منابع الشعر الصوفي، ويقصد به التعبير عن معنى قريب غير مراد، والبعيد عنه هو المراد. فالرمز عند الصوفيين ليس هو الغاية بذاته، وإنما هو وسيلة إلى الغاية، وهو يختلف اختلافاً بيناً عن الطريقة الرمزية في الشعر الحديث، وذلك أن الرمزية في الشعر الحديث تنشأ عن الموسيقى، ولا تحفل بالفكرة والمطهر. فالرمز عند الصوفيين ينجم عن الحالات النفسية التي تنشأ عن الأحوال والمواجيد، وتقتصر الألفاظ عن تصويرها تصويراً دقيقاً فيعمد الصوفي إلى الرمز والإشارة إليه ليعبر عن فيضه الباطني، فيبدع لنفسه مصطلحات خاصة لا يدركها إلا الصوفي مثله. ولعل قافية الشيخ محمد الناصر الكبرى تمثل هذا الباب إذ قال:

شربنا بطنبت الشراب المروقا	شربا طهوراً ينتج العز والتقا <sup>(57)</sup>
سقانا كئوس الأندرين كرامنة	مدير حميا الراح أكرم بها سقا
فغابت به أرواحنا وقلوبنا	فياحبذا ذاك الشراب المروقا
فهمننا به سكرنا وصحننا تهتكنا	ويحنا بأسرارها من قرا رقا
فلو ذاق طعم السكر يوماً وشاتنا	لطاروا به رقصا وخافوا التشدقا
نعم ترقص الأعضاء في الذكر دائماً	إذا ذكرت عهد الحبيب تشوقا
فلاتنكروا رقصي إذا ما ذكرته	وهل ترقص الأعضاء إلا تعشقا
إذا ذكر الأحباب طارت قلوبنا	إلى رؤية المحبوب تشدو تحرقا
عكفنا على أمداحه نستطيعها	ونتهز كالأغصان في ذكر من سقا

يرى القارئ في هذه الأبيات رموز يعينها الصوفيون في بنات أفكارهم، فالشراب وكئوس الأندرين والسكر، كلمات استعملها الناظم في غير معناها الأصلي ما لا يدركها غالباً إلا المتعمقون في بحر الطريقة.



## الخاتمة:

إن الشعر النيجيري يعدم الحوافز الشعرية التي يجدها قرينه في بلاد العرب، قديماً وحديثاً، ومن الحوافز الهدايا والعطايا التي يحصل عليها المتكسبون بالشعر قديماً، ومنها التشجيع المعنوي الذي يتلقاه الشاعر من جمهور القراء والمستمعين حديثاً. ولما كان الباعث للشعراء النيجيريين إلى تعلم اللغة العربية هو الدين الإسلامي كان لابد من أن ينبع أدهم من منابع الدين، وأن يدور حول أغراض يبررها الدين، لذلك يتمسك معظمهم إن لم يكن كلهم بحبل العقيدة الإسلامية في كثير من إنتاجاتهم نثراً كان أم شعراً. تناولت هذه المقالة الشعر الصوفي في نيجيريا، وآراء العلماء فيه من مؤيد ومنكر، والطرق الصوفية المنتشرة في نيجيريا بصورة موجزة ثم استشهدنا بتسعة أغراض اشتهرت بين أوساط الصوفيين، وقد أتينا بنماذج من شعر الحب الإلهي والتوسل والمدح النبوي ومدح الشيوخ واللعنات... لتدل على أن التصوف الإسلامي ليس بمجهول في ربوع نيجيريا، وإنما فن قديم تداوله شعراء العرب وغير العرب قديماً وحديثاً، وفي نيجيريا بصفة خاصة.

فلا يسع أحداً منصفاً أن ينكر دور الصوفية الأبرار في نشر الإسلام في مختلف الأقطار كما لا ينكر أحد فضلهم في إصلاح الأخلاق وإثراء الفكر الإسلامي بالحكمة والمعرفة ومجاهدة النفس والهوى والشيطان حيناً، وبالشعر العربي أحياناً.

\*\*\*\*\*